روايات مصرية للجيب

الكتاب الحادى عشر

كوكتيل ٢٠٠٠

ثقافة الغد .. لشباب اليوم

ثمن الصداقة

وقصص أخرى

د. نبيل فاروق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

Looloo
www.dvd4arab.com

- مع بدء العـــد التنـــازلى ، نحو القـــرن الحادى والعشرين ..
- مع التطور السريع للعلوم والفنون والآداب ..
- مع ضرورة أن تصبح المعرفة حتمية كالماء والهواء ..
- مع كل هذا جاءت كوكتيـل ٢٠٠٠ ، بمثابة باب إلى المعرفة ..
- إلى الحضـــارة ..
- إنها ثقافة الغد .. لشباب اليـوم

د. نبيل فاروق

رفقاً بهم

(قصة قصيرة)

« أنت تستحق القتل .. »

ارتجف الكهل النحيل ، عندما انطلقت هذه العبارة كالرصاصة فى أذنيه ، من بين شفتى الأستاذ (عبد العال) ، مدير جمعية الرفق بالحيوان ، الذى انعقد حاجباه الكثّان على نحو مخيف ، واكتست ملامحه كلها بمزيج من الغضب والصرامة ، وهو يستطرد فى حدة :

ــ لو أن الأمر بيدى ، لأعدمتك فى ميدان عام .

ازدرد الكهل لعابه فى صعوبة ، وقلب كفيه فى حيرة ، مغمغمًا :

ــ لماذا ياسعادة البك ؟.. ما الذى فعلته لأستحق كل هذا ؟

صرخ الأستاذ (عبد العال) فى وجهه :

ــ ما الذى فعلته ؟! .. ياللهول !!.. أتجرؤ على إلقاء مثل هذا السؤال أيها الوقح ؟.. ألا تدرك فداحة الجرم الذى ارتكبته ؟

تمتم الكهل فى مزيد من الحيرة :

ــ لا ياسيِّدى .. لست أدركه .. أخبرنى أنت .

أطلق الأستاذ (عبد العال) زمجرة مخيفة ، قبل أن يصرخ فى وجهه :

ــ ياللك من تافه جاهل !.. ألم تضرب حمارك يا رجل ؟ .. ألم تنهل على ظهره بعصاك ، فى وسط الطريق ؟

خيِّل للكهل أنه لم يفهم ، فقال وهو يضرب كفًا بكف :

ــ وماذا فى هذا يا سعادة البك ؟.. إنه حمار .. مجرَّد حمار .

صاح الأستاذ (عبد العال) :

ــ بل هو كائن حى .

قال الكهل معترضًا :

ــ كائن حى غبى يا سيِّدى ، والوسيلة الوحيدة ، للتفاهم معه ، هى الضرب .. لاتوجد وسيلة أخرى .

ضرب الأستاذ (عبد العال) سطح مكتبه بقبضته فى عنف ، وهو يقول :

ــ وهل جرَّبت وسيلة أخرى ؟ .. هل حاولت أن تتعامل معه بحب ؟

اتسعت عينا الكهل ، وهو يهتف :

ــ حب ؟! .. أتعامل مع حمارى بالحب ؟! .. ما الذى تقوله يا سعادة البك ؟ .. من ذا الذى يتعامل مع حيوان كهذا بالحب ؟ .. إنه حيوان .. مجرَّد حيوان ، مهمته هى أن يجعل حياتنا أيسر ، وأن ..

قاطعه الأستاذ (عبد العال) هادرًا :

ــ وأن نحيل نحن حياته إلى جحيم .. أليس كذلك ؟

ثم اختطف قلمه ، وقد التقى شعر حاجبيه الكث على نحو مخيف ، مستطردًا :

ــ لا يارجل .. إنك لست أمينًا على هذا الحمار ؛ ولهذا سنأخذه منك .

صرخ الكهل فى ذعر :

ــ تأخذونه ؟ .. تأخذون الحمار ؟! ..يا للنهار الأسود ! .. كيف تأخذونه يا سعادة البك ؟ .. إنه هو الذى يحملنى إلى حقلى كل صباح ، ويحمل متاعى وأثقالى و ..

قاطعه الأستاذ (عبد العال) فى صرامة :

ــ ولماذا لم تحافظ على هذه العلاقة الطيبة ؟

ضرب الكهل كفًا بكف مرة أخرى ، وهو يصرخ :

ــ أية علاقة يا بك ؟ .. إنه حمار .. حماااار .

ضغط (عبد العال) زر الجرس ، الموضوع فوق مكتبه ، وهو يقول فى غضب :

ــ أخرج يارجل .. أخرج .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى دخل فرَّاش مكتبه ، ورفع يده بالتحية .

استجابة لنداء الجرس ، فصاح به الأستاذ (عبد العال) :

ــ ألق بهذا الرجل خارجًا .

راح الكهل يصرخ :

ــ والحمار يا سعادة البك ؟! .. ماذا عن الحمار ؟ .. أريد حمارى .

تجاهله (عبد العال) تمامًا ، وعدّل من وضع رباط عنقه ، وهو يقول فى صرامة :

ــ قساة .

وبضمير مرتاح تمامًا ، واصل عمله فى الجمعية ، حتى انتهت ساعات العمل ، فاستقلّ سيارة الجمعية ، وأوصله بها سائقها إلى منزله ، فصعد إلى المنزل بملامحه الصارمة كالمعتاد ، ولم تكد زوجته تستقبله بالباب ، حتى عقد حاجبيه فى شدة ، وسألها وهو يتطلّع إلى عينيها :

ــ ماذا حدث ؟.. هل كنت تبكين ؟

تردَّدت لحظة ، ثم خفضت عينيها ، قائلة :

ــ نعم.. كنت أبكى .

سألها فى قلق :

ــ لماذا ؟.. ماذا حدث ؟

انحدرت الدموع من عينيها ، وهى تجيب :

ــ لقد رسب ابننا (فتحى) مرة أخرى .

صرخ (عبد العال) فى غضب :

ــ رسب ؟!

ثم اندفع داخل الشقة ، مستطردًا فى شراسة :

ــ هذا الغبى التافه .

تعلّقت زوجته بذراعه فى ذعر ، وهى تهتف :

ــ إنه محدود الذكاء ، كما أخبرنا الطبيب.. صدقنى.. إنه لا يملك أكثر من هذا .

دفعها جانبًا ، وهو يختطف عصا غليظة ، من ركن الردهة :

ــ بل هو غبى ومستهتر ، ويحتاج إلى درس قاس .

اندفع نحو حجرة ابنه ، واقتحمها فى عنف ، وسمعت زوجته ابنها يطلق شهقة رعب ، ويصرخ :

ــ لن أرسب مرة أخرى يا أبى.. أقسم إننى لن أفعل .

حاولت أن تندفع لنجدة ابنها ، إلا أن (عبد العال) أغلق باب الحجرة بالمفتاح فى الداخل ، وهو يقول فى غلظة :

ــ أعلم أنك لن تفعل ؛ بسبب ما سيحدث لك الآن .

ورفع العصا ، وراح يهوى بها على جسد الفتى المسكين فى قسوة ، والصبى يطلق صراخا عاليًا ، انفطر له قلب أمه ، وهى تذرف الدمع ، وتصرخ :

ــ ارحمه يا (عبد العال).. ارحمه.. حاول أن تتعامل معه بالحب .

ثم راحت تدقّ الباب بقبضتيها ، وصراخ ابنها يمزّق نياط قلبها ، وهى تستطرد :

ــ رفقًا به يا (عبد العال) .. رفقًا به .

ومامن مجيب ..

° ° °

العقرب

عندما يعجز القانون البشرى عن القصاص ..
عندما تحيط العدالة عينيها بعصابة سميكة ..
حينما يرتفع ذلك الحاجز بين العدالة والقانون ..
عندئذ يهب هو للقتال ، حاملا ذلك الاسم ، الذى يثير الرجفة فى قلوب أعتى المجرمين ..
اسم (العقرب) .

د. نبيل فاروق

العقرب

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

١ ــ جنون ..

رفع اللواء (حلمى) يده بالتحية العسكرية ، ردًا على التحية الرسمية ، التى أدّاها له رجال شرطة الحراسة ، عند بوابة مديرية أمن (القاهرة) ، ثم اتجه بخطواته السريعة المعتادة نحو السلّم ، الذى يقود إلى الطابق الثالث ، حيث مكتبه الخاص ، إلا أن خطواته لم تلبث أن أبطأت ، عندما وقعت عيناه على شاب نحيل ، يقف منكمشًا فى ركن قريب ، يتطلّع إليه بنظرة عجيبة ..

نظرة تجمع ما بين اللهفة ، والخوف ، والقلق ، والتردّد ..

نظرة شعر معها اللواء (حلمى) بنداء استغاثة ..

نداء موجّه إليه بالتحديد ..

وراوده شعور خفى أن هذا الشاب هنا من أجله هو ..

لم يدر لماذا راوده هذا الشعور بالذات ؟ ..

أهى خبرة عشرات السنين ، فى العمل بالشرطة ؟ ..

أم هى حاسة تنمو مع الأيام ؟.

المهم أن خطواته انتقلت بغتة إلى خانة الوقوف ، وهو يلتفت إلى الشاب ، ويرسم على شفتيه ابتسامة أبوية حانية ، وهو يقول فى هدوء :

ــ هل كنت تنتظرنى ؟

اتسعت عينا الشاب ، وتراجع فى حركة حادة ، وكأنما بوغت بتلك المبادرة غير المتوقّعة ، وارتبك وهو يقول :

ــ نعم .. هذا صحيح فى الواقع .. إننى .. إننى ..

قاطعه اللواء (حلمى) فى هدوء :

ــ أليس من الأفضل أن نتحدّث فى مكتبى ؟

تردّد الشاب لحظات أخرى ، وتلفّت حوله فى قلق ، ثم همس :

ــ بلى .. هذا أفضل بالتأكيد .

ــ أشار إليه اللواء (حلمى) ، وقال :

ــ هيا بنا إذن .

لم يتبادلا كلمة واحدة ، حتى استقرّ بهما المقام فى حجرة مكتب اللواء (حلمى) ، الذى تراجع فى مقعده ، وسأل الشاب ، الذى يجلس على المقعد المقابل للمكتب :

ــ والآن ماذا لديك ؟

بدا التوتر الشديد على وجه الشاب ، الذى ازدرد لعابه فى توتر واضح ، وتصبّب عرق غزير على وجهه ، على الرغم من مكيف الهواء بالحجرة ، فى حين راح اللواء (حلمى) يراقبه فى صمت ، دون أن ينبس ببنت شفه ، وكأنما يمنحه الفرصة الكافية للسيطرة على أعصابه ، حتى هدأ الشاب قليلًا ، ومال نحو حافة المكتب ، وهو يهمس :

ــ اسمى (فهمى) ، وأنا مهندس جيولوجى ، فى واحدة من شركات البترول المصرية ، و ..

بتر عبارته بغتة ، وراح يجفف عرقه فى توتر ، قبل أن يندفع فجأة ، قائلًا :

ــ هناك اختلاسات رهيبة بالشركة .. اختلاسات تقدّر بملايين الجنيهات ..

رفع اللواء (حلمى) حاجبيه فى دهشة ، وقال :

ــ اختلاسات ؟! .. ولكنك هنا فى المباحث الجنائية ، وقسم مكافحة المخدرات يابنى ، والاختلاسات من اختصاص مباحث الأموال العامة و ..

قاطعه (فهمى) فى مرارة :

ــ لن يمكنهم فعل شىء .

سأله (حلمى) فى حيرة :

ــ لماذا ؟ ..

عضّ (فهمى) شفته السفلى ، وهو يقول فى غيظ :

ــ لأنهم لن يجدوا دليلًا واحدًا .

رفع اللواء (حلمى) حاجبيه فى دهشة مرة أخرى ، ثم عاد يعقدهما ، وهو يقول فى حزم :

ــ مستحيل يا ولدى .. لا يمكن لمجرم ، مهما بلغت براعته ، أن يختلس ملايين الجنيهات ــ كما تقول ــ دون أن يترك خلفه دليلًا واحدًا .

قال (فهمى) فى توتر :

ــ هذا لو أنه مجرم واحد .

ثم عاد يميل نحو المكتب ، مستطردًا فى قلق عجيب :

ــ إنهم عصابة .. الجميع يكونون عصابة واحدة .. كل الشركة عصابة واحدة .

تراجع اللواء (حلمى) بمقعده ، وعاد يتطلع إلى الشاب بنظرة جديدة ..

إنه إذن من ذلك النوع ، المصاب بجنون الاضطهاد النفسى ، بحيث يتصوّر أن جميع من حوله قتلة ولصوص ، وأنهم جميعًا يتربصون به ..

كل شىء فى الشاب يثبت هذا ..

نظراته الزائغة ..

خوفه الشديد ..

توتّره الزائد ..

إنه مصاب بعقدة الاضطهاد حتمًا ..

ارتاح عقل اللواء (حلمى) لهذا التفسير ، فشبّك أصابع كفيه أمام وجهه ، وقال فى هدوء :

ــ إذن فالشركة كلها لصوص .

أومأ الشاب برأسه إيجابًا ، ثم استدرك بسرعة :

ــ ليس الجميع بالطبع ، بل المديرون .. فقط مديرو الأقسام .. كلهم حتى رئيس مجلس الإدارة ..

غمغم اللواء (حلمى) مشفقًا :

ــ حقًا ؟!

اندفع (فهمى) يقول فى حماس ، وكأنما تحرّرَ أخيرًا من خوفه :

ــ نعم يا سيّدى .. إنهم يبيعون البترول لحسابهم الخاص .. الجميع يشتركون فى هذا العمل القذر .. لقد كشفت أمرهم بمحض الصدفة ، و ..

عاوده خوفه ، على هيئة رعب مباغت ، وهو يستطرد بصوت مرتجف :

ـــ وسيسعون للتخلّص منى حتمًا .

غمغم اللواء (حلمى) :

ـــ ليس بهذه البساطة .

هتف (فهمى) ، وهو يتشبّث بحافة المكتب :

ـــ إنهم يستطيعون قتلى بالتأكيد .. ألم أقل لك إنهم عصابة رهيبة .

مال اللواء (حلمى) نحوه ، وقال فى حنان مشفق :

ـــ أفضل وسيلة إذن هى أن تهرب منهم .

هزَّ (فهمى) رأسه فى أسى ، وقال :

ـــ سيعثرون علىَّ بالتأكيد .

ابتسم اللواء (حلمى) متعاطفًا ، وقال :

ـــ لا تسبح فى هذه الفكرة طويلًا ، وإلا غرقت فى أعماقها إلى الأبد .

بدا (فهمى) ، وكأنه سينفجر باكيًا ، وهو يقول :

ـــ لا يمكننى السباحة فى أى شىء ، فأنا أجهل السباحة تمامًا .

ثم رفع عينيه إلى اللواء (حلمى) ، واستطرد مستنجدًا :

ـــ ولكننى أحتاج إلى حماية .. حماية خاصة من رجال الشرطة .

كان مطلبًا مباغتًا ، جعل اللواء (حلمى) يرتبك لحظة ، وهو يردّد :

ـــ حماية ؟!

ثم لم يلبث أن تمالك نفسه ، فاستطرد فى سرعة :

ـــ بالتأكيد .. ستحصل على حماية الشرطة .

وغمز بعينه ، مردفًا :

ـــ وبشكل سرى تمامًا .

تهلّلت أسارير الشاب ، وهو يقول :

ـــ حقًا ؟!

تراجع اللواء (حلمى) فى مقعده ، هاتفًا فى حماس مفتعل :

ـــ بالتأكيد .

تنهّد الشاب فى ارتياح ، ونهض يصافح اللواء (حلمى) ، قائلًا :

ـــ أشكرك ياسيّدى .. كنت أعلم أنك ستقف إلى جانبى .. لقد قرأت عنك الكثير ..

ثم عاد يسأله فى اهتمام :

ـــ ومتى ستبدأ هذه الحراسة ؟

بدأ الضجر يتسلّل إلى نفس (حلمى) ، وهو يقول :

ـــ الآن .. سأصدر أوامرى ببدء حراستك ، فور انصرافك من مكتبى .

تهللت أسارير (فهمى) مرة أخرى ، وشدّ على يد اللواء (حلمى) فى حرارة ، قائلًا :

ـــ أشكرك يا سيّدى .. أشكرك على كل شىء ، وأعدك أن أبذل أقصى جهدى ؛ لجمع أدلة إدانة ، توقع بالجميع فى أيدى العدالة .

صافحه اللواء (حلمى) ، وهو يقول :

ـــ بالتأكيد .. سأنتظر ما تأتى به .

ولم يكد الشاب يغادر حجرة المكتب ، حتى تنفس اللواء (حلمى) الصعداء ، وهو يتصوَّر أن مشكلته قد انتهت ..

ولكنه كان مخطئًا ..

لقد بدأت ..

* * *

٢ ــ الجريمة ..

عبرت (غادة) باب مكتب (نديم فوزى) للمحاماة ، فى خطوات سريعة مندفعة كعادتها ، وهتفت بعامل المكتب فى مرح :

ــ صباح الخير يا عم (أحمد) .. هل وصل (نديم) ؟

ابتسم العامل الكهل ابتسامة حانية ، تفيض بالأبوة ، وهو يقول :

ــ فى تمام الثامنة كالمعتاد يا بنيتى .

هتفت ضاحكة ، وهى تدفع باب مكتب (نديم) الخاص :

ــ كان ينبغى أن أتوقع هذا ، فعزيزنا (نديم) ينافس الساعات السويسرية . فى الدقة والانـ ..

بترت عبارتها بغتة ، عندما وقع بصرها على اللواء (حلمى) ، الذى يجلس على المقعد المقابل لمكتب (نديم) ، وهتفت :

ــ صباح الخير يا سيادة اللواء .. كم يسعدنى أن أراك هنا .

بدا لها شديد الحزن ، وهو يغمغم :

ــ أشكرك يا بنيتى .. أشكرك .

اقتربت منه فى دهشة ، ثم رفعت عينيها إلى (نديم) ، الذى بدا هادئًا رصينًا كعادته ، وسألته :

ــ ماذا هناك ؟

أشار إليها (نديم) بالجلوس ، وهو يقول :

ــ لقد وصلت ، وأنا ألقى السؤال نفسه على سيادة اللواء (حلمى) ،

فلقد وصل قبل وصولك بلحظات .

جلست وهى تسأل اللواء (حلمى) فى قلق :

ــ حسنًا يا سيدى .. ماذا هناك ؟

وضع اللواء (حلمى) صحيفة مطوية أمام (نديم) ، وأشار إلى جزء منها ، قائلًا فى لهجة تحمل كل مرارة الدنيا :

ــ اقرأ هذا الخبر .

بدا الفضول الشديد على وجه (غادة) ، فقرأ (نديم) بصوت مسموع :

ــ غرق جيولوجى شاب فى البحر الأحمر .. تفاصيل الخبر تقول : أغرت حرارة الطقس جيولوجيًا شابًا ، وهو المهندس (فهمى صابر) ، على السباحة بعض الوقت ، فى مياة البحر الأحمر ، بعد غروب الشمس ، ولكن التيارات البحرية جذبته إلى الأعماق ، فلقى مصرعه غرقًا .

صمت (نديم) لحظة ، بعد انتهائه من قراءة الخبر ، وكأنما يحاول ربط الحادث باللواء (حلمى) ، وبالحزن الذى يملأ ملامحه ، ثم لم يلبث أن قال :

ــ حادث مؤسف .

رفع اللواء (حلمى) رأسه فى حركة حادة ، وقال :

ــ بل جريمة قتل بشعة .

شحذ القول حواس (نديم) و (غادة) فى شدة ، وهتفت (غادة) :

ــ جريمة قتل ؟. ما الذى يدعوك إلى مثل هذا القول ياسيادة اللواء ؟

أجابها اللواء (حلمى) فى مرارة :

ـــ الجريمة نفسها يا (غادة) .. لقد خطّط هؤلاء القتلة لارتكاب جريمتهم ، ولكنهم لم ينتبهوا إلى نقطة بالغة الأهمية .

وأشار إلى الخبر بسبّابته ، مستطردًا فى حدة :

ـــ فهذا المهندس الشاب لا يعرف السباحة .

عقد (نديم) حاجبيه ، على نحو يوحى باهتمامه الشديد بالأمر ، فى حين تابع اللواء (حلمى) :

ـــ هل رأيتما رجلًا يجهل السباحة ، وتغريه حرارة الطقس بالنزول إلى البحر ، بعد غروب الشمس ؟..

تمتمت (غادة) فى اهتمام :

ـــ ولا حتى بعد شروقها .

أما (نديم) ، فقد انحنى نحو اللواء (حلمى) ، وسأله :

ـــ ولكن كيف عرفت هذا يا سيّدى ؟

أومأ اللواء (حلمى) برأسه ، وهو يقول فى أسى :

ـــ سأخبرك يا ولدى .. سأخبرك بكل شىء .

انطلق يروى لهما كل ما حدث منذ ثلاثة أيام ، ومنذ أن رأى (فهمى) فى بهو مديرية الأمن ، حتى انصرف هذا الأخير من مكتبه ، ثم أضاف فى حزن :

ـــ لم أصدّقه فى البداية ، وتصوّرت أنه مصاب بعقدة اضطهاد نفسية ، والآن أعتبر نفسى مسئولًا عن مقتله ، فلو كنت قد وفّرت له الحماية اللازمة ، لما ..

قاطعه (نديم) :

ـــ لا تقل (لو) هذه يا سيّدى ، فهى تعمل عمل الشيطان ، وحتى لو كنت قد أحطت (فهمى) هذا بسياج من الحراسة ، للقى مصرعه بنفس الوسيلة ، وفى نفس الموعد ؛ لأن هذا قدره .

ثم نهض من خلف مكتبه ، وبدا كما لو أنه يتحدّث إلى نفسه ، وهو يستطرد :

ـــ ولكن مصرعه هذا قد يشير إلى صحة أقواله ، أو إلى ..

قاطعته (غادة) فى سرعة :

ـــ أو إلى أنه قد انتحر .

التفت إليها (نديم) واللواء (حلمى) ، وهتف هذا الأخير فى دهشة :

ـــ انتحر ؟!

قالت فى هدوء :

ـــ هذا احتمال وارد بالطبع ، فالشخص المصاب بعقدة الاضطهاد قد تتضاعف مخاوفه ، حتى يخيّل إليه أن الأعداء يتربّصون به من كل جانب ، مما يحطّم أعصابه تدريجيًا ، إلى الحد الذى قد يدفعه إلى الانتحار ، كمحاولة للفرار من هذا العذاب ، الذى صنعه لنفسه .

صمتت لحظة ، ورأت (نديم) واللواء (حلمى) يتطلعان إليها فى شك ، فأضافت فى غضب :

ـــ لقد قرأت هذا فى مقال عن الطب النفسى .

ران الصمت على المكان لحظة أخرى ، ثم قال (نديم) فى هدوء :

ـــ هذا احتمال وارد بالطبع .

ولكن اللواء (حلمى) قال فى صرامة :

ـــ بل لقد قُتل الشاب .

ثم استطرد بكلمات سريعة :

ـــ هذه الصحيفة ، التى قرأتما فيها الخبر ، هى صحيفة أمس الأوّل ، ولقد قرأت أنا الخبر فى حينه ، فأسرعت أجمع بعض التحريات عن مديرى هذه الشركة .

سأله (نديم) فى إهتمام بالغ :

ـــ وما الذى أسفرت عنه هذه التحريات ؟

لوّح اللواء (حلمى) بكفه ، قائلًا :

ـــ أسفرت عن أطنان من الشك ، دون دليل مادى واحد ، فلهذه الشركة أربعة مديرين (عماد) ، مدير الإنتاج والمتابعة ، و (رضوان) ، مدير المخازن ، والدكتور (جمال) ، المدير العلمى الفنى ، ورئيس المعامل ، والمهندس (أشرف) ، المدير التنفيذى ، وعلى

راس هؤلاء الأربعة رئيس مجلس الإدارة (كامل شكرى) .. ورواتب هؤلاء الخمسة تعد من الرواتب الضخمة ، بالنسبة لمتوسط راتب أى مدير شركة عادية ، وعلى الرغم من هذا ، فالخمسة يعيشون فى رغد زائد ، بل ويحيون حياة المليونيرات ، مما يثير أكثر من علامة شك حولهم .

قال (نديم) :

ـــ من الممكن استجوابهم عن هذا ، فما زال قانون (من أين لك هذا ؟) ساريا ، والجهاز المركزى للمحاسبات يمكنه مراجعة حسابات الشركة و...

قاطعه اللواء (حلمى) فى مرارة :

ـــ لقد استجوبتهم الرقابة الإدارية بالفعل ، وكان لدى كل منهم تفسير قانونى لثرائه ، فمنهم من تزوّج من سيّدة ثرية ، ومن يعمل مستشارًا لدى شركات خاصة ، والثالث له مكتب هندسى ضخم ، والرابع يمتلك مستشفى خاصًا ، فى قلب (القاهرة) ، على الرغم من أنه ليس طبيبًا بشريا ، والخامس ورث عن ابن عمه ثروة طائلة ، تركها ابن العم الراحل فى بنك أمريكى .

عقد (نديم) حاجبيه ، وقال :

ـــ وهل يُعقل أن تجتمع كل هذه المصادفات ، فى شركة واحدة ؟

قلب اللواء (حلمى) كفيه ، وقال :

ـــ المهم هو الدليل يا ولدى ، وبدونه لا يملك رجال الرقابة الإدارية سوى إغلاق ملف الاتهام ، وتبرئة المتهمين ، خاصة وأن الجهاز المركزى

للمحاسبات لم يجد أدنى خطأ ، عند مراجعته حسابات وملفات الشركة ، بكل دقة .

لم يحر (نديم) جوابًا ، وإنما اكتسى وجهه بعلامات التفكير العميق ، فى حين تطلّعت إليه (غادة) فى تساؤل صامت ، قبل أن تلتفت إلى اللواء (حلمى) ، قائلة :

ـــ ما الذى يُمكن فعله إذن يا سيِّدى ؟

تنهّد اللواء (حلمى) ، وقال :

ـــ لا شىء يا بنيتى .. لا شىء .

ثم استدرك بسرعة :

ـــ من الناحية القانونية .

ظلّ وجه (نديم) جامدًا هادئًا ، لا يشفّ عما يُعتمل فى أعماقه ، فى حين نقلت (غادة) بصرها ، من وجهه إلى وجه اللواء (حلمى) ، قبل أن تسأل هذا الأخير فى حذر :

ـــ وهل هناك وسائل أخرى ؟

أجابها اللواء (حلمى) دون تردّد :

ـــ حتمًا .

ثم تراجع فى مقعده ، وتحاشى النظر إلى وجه (نديم) ، وهو يقول :

ـــ أتعلمين أى اسم يقفز إلى ذهنى ، فى مثل هذه الظروف ؟

سألته ، وهى تعرف الجواب تقريبًا :

ـــ أى اسم ؟

صمت لحظة ، اختلس خلالها نظرة ، إلى وجه (نديم) الجامد ، ثم جاب :

ـــ (العقرب) .

ابتسمت (غادة) ، وهى ترمق (نديم) بنظرة جانبية ، قائلة :

ـــ حقًا ؟!

اندفع اللواء (حلمى) يقول :

ـــ ومن غيره ؟.. إنه الشخص المناسب تمامًا ، فى مثل هذا الموقف ، فهو ـــ كرجال الشرطة ـــ يسعى لتحقيق العدالة ، ولكنه ـــ على عكسهم ـــ غير مقيَّد باللوائح والقوانين ، وضرورة اتباع وسائل أمنية خاصة .

قال (نديم) فى هدوء :

ـــ ولكن حتى (العقرب) على ما أعتقد يحتاج إلى دليل إدانة ، ولو لم يكن دليلًا ماديًا ، فهو يكره مهاجمة الأبرياء لمجرَّد الشك .

هزَّ اللواء (حلمى) كتفيه ، وقال :

ـــ لو أنه يسعى لتحقيق العدالة ، فمن واجبه أن يسعى للحصول على الدليل .

ثم نهض ، مستطردًا :

ـــ والواقع أننى لم أتمن رؤيته ، فى حياتى كلها ، مثلما أتمنى الآن .

سألته (غادة) :

ـــ لماذا يا سيِّدى ؟

أجابها فى صوت يحمل نبرة خاصة :

ـــ لأطلب منه أن يفعل هذا .

ثم اختلج صوته ، وهو يضيف :

ـــ من أجلى .

أجابه (نديم) فى حزم :

ــ وهو لن يتردّد يا سيّدى .

ثم أضاف فى صوت قوى حاسم :

ــ من أجلك .

لحظتها أدرك اللواء (حلمى) أن (العقرب) قد قبل المهمة ..

من أجله ..

ومن أجل العدالة .

* * *

٣ ــ الدليل ..

تطلّع (كامل شكرى) ، رئيس مجلس إدارة شركة البترول ، إلى البطاقة ، التى حملها إليه مدير مكتبه ، وردّد فى حيرة :

ــ (أحمد عبد الغفار) ، صحفى بجريدة (أخبار اليوم) ؟!.. وماذا يريد منى هذا الصحفى ؟

أجابه مدير مكتبه فى بساطة :

ــ ربما يرغب فى إجراء تحقيق صحفى ، حول نشاطات الشركة ، ومنجزاتها فى التنقيب عن البترول ، وزيادة الثروة القومية و ...

قاطعه (كامل) فى ضجر :

ــ حسنًا .. حسنًا .. دعه يدخل .

ابتسم مدير المكتب ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد يا سيّدى ، فنحن نرحّب دائمًا برجال الصحافة والإعلام .

أسرع يغادر المكتب ، فى حين عدّل (كامل) رباط عنقه ، وابتسم قائلًا :

ــ لا بأس من بعض الدعاية .

رأى شابًا وسيمًا يدلف إلى مكتبه ، وهو يعدّل من وضع منظاره الطبى فوق عينيه ، فنهض يستقبله بابتسامة ديبلوماسية ، وهو يقول :

ــ أهلًا بك فى شركتنا يا أستاذ (أحمد) ..

صافحه (نديم) ، الذى ينتحل شخصية الصحفى ، وهو يقول فى هدوء :

ــ شكرًا يا سيِّد (كامل) .

أشار إليه (كامل) بالجلوس ، وهو يقول :

ــ إننى أرحّب دائمًا برجال الصحافة ، فشركتنا صاحبة إنجازات عظيمة ، وواحدة من الـ ...

قاطعه (نديم) فى هدوء :

ــ معذرة يا سيِّدى ، ولكننى لست هنا لغرض صحفى .. هذه المرة على الأقل .

قفز الشك إلى نفس (كامل) ، فجلس على مقعده فى بطء ، وسأل (نديم) فى حذر :

ــ لست هنا لغرض صحفى ؟! .. لماذا أنت هنا إذن ؟

عدّل (نديم) من وضع المنظار الزائف فوق أنفه مرة أخرى ، وقال :

ــ الواقع أنه هناك صديق لى ..

قاطعه (كامل) :

ــ وتريد تعيينه هنا ؟

هزّ (نديم) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ لا .. لا يمكننى طلب هذا .. ولا يمكنكم فى الوقت نفسه تعيينه فى أى مكان ؛ لأنه بكل بساطه ..

حمل صوته صرامة مباغتة ، وهو يستطرد :

ــ مات .

عقد (كامل) حاجبيه ، وتراجع فى دهشة ، مغمغمًا :

ــ مات ؟!

قال (نديم) فى حزم :

ــ لو أردنا استخدام التعبير ، المناسب تمامًا لما حدث ، فهو لم يمت ، وإنما قُتِل ؟

ارتفع حاجبا (كامل) ، وهو يهتف :

ــ قُتِل .

ثم سأل (نديم) فى حدة :

ــ ما الذى تريده بالضبط أيها الصحفى ؟

مال (نديم) نحوه ، وقال :

ــ أظنك تعرف صديقى هذا جيِّدًا يا سيِّدى ، فلقد كان يعمل هنا ، فى شركتك .. واسمه هو (فهمى) .. المهندس (فهمى صابر) .

سرت ارتجافة واضحة فى جسد (كامل) ، وهو يقول :

ــ (فهمى صابر) ؟!

ثم اندفع يستطرد :

ــ ولكن المهندس (فهمى) لم يُقتل ــ كما تدّعى ــ لقد مات غرقا و ...

قاطعه (نديم) :

ــ الواقع أن (فهمى) قد أخبرنى عن أشياء عجيبة ، قبل مصرعه .

اتسعت عينا (كامل) فى ذعر ، لم يستغرق أكثر من ثوان معدودة ، عادت بعدها ملامحة تكتسى بالصرامة ، وهو يقول :

ــ ما الذى أخبرك به ؟

هزّ (نديم) كتفيه ، وقال :

ــ أخبرنى عن أسلوب جهنمى ، لسرقة البترول ، وعن تورّط عدد من كبار قيادات الشركة فى هذا و ...

فاطعته صبحة هادرة من (كامل) :

ــ كاذب .

ثم هبّ رئيس مجلس الإدارة من مقعده ، مستطردًا فى ثورة :

ــ لست أسمح لك بترديد مثل هذه الأكاذيب هنا .

نهض (نديم) فى هدوء ، وقال :

لا بأس .. فلتقرأها على صفحات الجرائد إذن .

وغادر المكتب فى سرعة ، تاركًا (كامل) خلفه ، وقد احتقن وجهه فى شدة ، قبل أن يلقى جسده على مقعده ، مغمغمًا :

ــ اللعنة !

ثم اختطف سمّاعة هاتفه ، وأدار رقمًا داخليًا فى توتر ، ولم يكد يسمع صوت محدّثه ، حتى قال فى عصبية :

ــ احضر إلى مكتبى على الفور يا (عماد) ، واصطحب معك (رضوان) ، والدكتور (جمال) ، و (أشرف) .. هناك أمر بالغ الخطورة . لابد أن نناقشه معًا .

ثم أنهى الاتصال ، وحلّ رباط عنقه قليلًا ، وهو يقول :

ــ كنت أعلم أن الأمر لن ينتهى بهذه البساطة .. كنت أعلم هذا .

* * *

غادر (نديم) مبنى الشركة فى هدوء ، وفتح باب سيارة (غادة) الأيمن ، وجلس فى المقعد المجاور لمقعد القيادة ، الذى تحتله (غادة) ، التى أدارت محرّك السيارة فور دخوله ، وسألته :

ــ ماذا فعل رئيس مجلس الإدارة ، عندما واجهته بالأمر ؟

أجابها فى هدوء ، وهى تنطلق بالسيارة :

ــ ثار وهاج وماج ، وكاد يطردنى من مكتبه .

ثم أضاف ، وهو يسترخى فى مقعده :

ــ ولكن ملامحه شفّت عن الكثير مما يدينه .

مطّت شفتيها ، وقالت :

ــ وهل تعتبر هذا دليلًا ؟

هزّ رأسه نفيًا ، وقال :

ــ كلّا بالطبع ، ولكن لا تنسى أن بطاقة الصحفى ما زالت هناك ، على مكتب (كامل) ، وعليها عنوان تلك الشقة ، التى استأجرتها باسم (أحمد عبد الغفار) .

سألته فى اهتمام :

ــ وهل سيمنحك هذا الدليل الكافى ؟

أجابها فى بساطة :

ــ بالتأكيد .. سيمنحنى الدليل على هيئة محاولة .

وارتسمت فى عينيه ابتسامة كبيرة ، وهو يستطرد :

ــ محاولة قتل .

* * *

« يعرف كل شىء ؟! »

نطق المهندس (أشرف) هذه العبارة فى هلع ، قبل أن يعجز عن الوقوف ، ويسقط فوق أقرب مقعد إليه ، واتسعت عينا الدكتور (جمال) فى ذهول ، وهو يحدّق فى وجه (كامل) ، وكأنما لا يصدّق ما قاله هذا الأخير ، وعقد (عماد) حاجبيه فى شدة ، فى حين قال (رضوان) فى عصبية :

ـــ ماذا تعنى بأنه يعرف كل شىء ؟

أجابه (كامل) فى توتر :

ـــ لقد أخبرنى أنه صديق لذلك المهندس الغبى ، الذى كشف الأمر كله ، واضطرنا للتخلّص منه ، وقال : إن المهندس قد أخبره بكل شىء ، قبل أن يلقى مصرعه .

شحب وجه الدكتور (جمال) ، وهو يقول فى رعب :

ـــ مستحيل !!

أما (رضوان) ، فقال فى حدة :

ـــ مهلًا .. لا تجعلوا هذا يحطّم أعصابكم .. لا أحد يمكنه كشف ما نفعله ، فأنتم تعلمون جميعًا كم يسير كل شىء بمنتهى الدقة ، حتى أن الرقابة الإدارية ، والجهاز المركزى للمحاسبات قد عجزا عن كشف الأمر .

ثم التفت إلى (كامل) ، يسأله :

ـــ هل تعرف عنوان ذلك الصحفى ؟

ناوله (كامل) البطاقة ، التى حملها إليه مدير مكتبه ، وهو يقول :

ـــ لقد ترك بطاقته هنا .

التقطها (رضوان) ، وهو يقول فى اهتمام :

ـــ عظيم .

سأله الدكتور (جمال) فى عصبية :

ـــ ماذا تنوى أن تفعل ؟

أجابه (رضوان) فى صرامة :

ـــ ماذا تقترح ؟.. إننا لا نملك الاختيار يا رجل ، فما دام هـذا الصحفى صديقًا للمهندس (فهمى) ، فليلحق به فى العالم الآخر .

هتف (أشرف) :

ـــ كنت أعلم هذا .. كنت أعلم أن الأمر لن ينتهى بالتخلّص من هذا المهندس ، وأننا سنتحوّل إلى قتلة و ...

قاطعه (كامل) فى صرامة :

ـــ اصمت .

ابتلع (أشرف) كلماته فى خوف ، فى حين التفت (كامل) إلى (رضوان) ، وقال فى حزم :

ـــ أريد منك أن تنهى هذه العملية فى سرعة ، كما فعلت فى العملية السابقة .

ارتسمت ابتسامة عجيبة على شفتى (رضوان) ، وهو يلتقط سمّاعة الهاتف ، قائلًا :

ـــ اطمئن يا سيّدى .. ستكون عملية نظيفة .. وسريعة .

وعندما أدار قرص الهاتف ، كان هذا يعنى أن المقصلة قد أفلتت من عقالها ، وستهوى على عنق ضحيتها ..

على عنق (نديم) .

* * *

٤ ـــ الشبح ..

كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الواحدة والنصف صباحا ببضع ثوان ، عندما توقّفت سيارة صغيرة أمام منزل من أربعة طوابق ، واعتدل قائدها أمام عجلة القيادة ، والتفت إلى جاره ، الذى بدا ضخمًا أكثر مما ينبغى ، حتى ليدهشك كيف حشر جسده ، فى عربة لها مثل هذا الحجم ، وقال فى لهجة آمرة :

ـــ ها هوذا المنزل .. هيا .. انه مهمتك بسرعة ، وسأنتظرك .

بدا صوت الضخم أشبه بزمجرة ذئب شرس ، وهو يقول :

ـــ اطمئن ، سأعود فى لحظات .. ابق المحرّك دائرًا ، حتى لا نضيع وقتا فى الانصراف .

ثم دفع باب السيارة ، وأمسك قائمها فى قوة ، وهو يدفع جسده خارجها ، واعتدل إلى جوارها يربّت على موضع جيب سترته ، وكأنما يطمئن على وجود مسدسه ، فقال قائد السيارة فى حزم :

ـــ لا تستخدم .. نريدها أشبه بحادث عرض ، كما فعلنا فى المرة السابقة .

زمجر الضخم ، قائلًا :

ـــ اطمئن .

واتجه فى خطوات واسعة نحو المنزل ، وصعد فى درجات سلمه فى خفة ، تتناقض وحجمه الضخم ، حتى بلغ الطابق الرابع ، فأخرج من جيبه بطاقة (نديم) الزائفة ، وقرأ رقم الشقّة المدوّن بها ، ثم راجعه مع

الرقم المعدنى ، المثبت أعلى باب الشقة ، وغمغم :

ــ إنها هى .

وبسرعة ، أخرج من جيبه أداة رفيعة ، دسّها فى ثقب المفتاح ، وأدارها فى مهارة ، حتى سمع صوت لسان الباب ينزلق إلى الداخل ، فابتسم فى زهو ، مغمغمًا :

ــ كالمعتاد .

ودفع باب الشقة فى هدوء ، ثم دلف إليها ، وأغلق الباب خلفه ، دون أن يصدر عنه إلا صوت ضعيف ، يصعب أن يسمعه سواه ، ثم اتجه على أطراف أصابعه إلى حجرة النوم ، وفتح بابها فى خفوت ، وألقى نظرة على الجسد ، الذى يخفيه غطاء الفراش ، وأخرج من جيبه بخّاخة تحوى مادة مخدّرة ، وهو يهمس لنفسه :

ــ عبقرى أنت يا (بكرى) .. دفعة واحدة من هذا السائل العجيب ، ويذهب الصحفى فى غيبوبة عميقة ، أفتح بعدها حمام الغاز ، وأترك له مهمة إكمال الباقى ، بحيث لا يدرك الصحفى أنه قد لقى مصرعه ، إلا وهم يوقظونه فى الجحيم .

كاد يطلق ضحكة مجلجلة ، إعجابًا بدعابته ، ولكنه حبس هذه الضحكة فى أعماقه ، وتحرّك على أطراف أصابعه نحو الفراش ، وأزاح الغطاء عن الجسد النائم فى حركة حادة ، وهو يقول :

ــ نم أيها الصحفى .

ولكنه تراجع فى دهشة ، عندما فوجىء بأن ذلك الراقد أسفل الغطاء ، ليس سوى وسادة كبيرة ، فى نفس اللحظة التى ارتفع فيها صوت عميق ، من ركن الحجرة المظلم ، يقول :

ــ مفاجأة .. أليس كذلك ؟

تحوّلت دهشته إلى انتفاضة عنيفة ، شملته من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، وهو يلتفت فى حركة حادة إلى مصدر الصوت ..

ولوهلة ، خيّل إليه أن الركن خال ، ليس به مخلوق واحد ، وقفز عقله فى فزع إلى حكايات الجن والعفاريت ، ثم ارتعد جسده كله ، وبدا له أن مخاوفه ستتحوّل إلى حقيقة ، عندما انفصل ظلّ أسود عن الركن المظلم ، وخطا خطوتين إلى الأمام ، وهو يقول :

ــ ماذا أصابك ؟ .. هل ابتلع القطّ لسانك ؟

عندئذ فقط ، بَيّنت عينا (بكرى) الضخم ما أمامه ..

كان ذلك الماثل أمامه عبارة عن شبح مخيف ..

شبح يتشح بالسواد ، ويخفى نصف وجهه بقناع أسود .. وفجأة نفض عقل (بكرى) كل ما ملأه من مخاوف وخيالات ، واستعادت غريزته القتالية سيطرتها على تفكيره ، فزمجر هاتفًا :

ــ إنها خدعة إذن .

وانقضّ فى وحشية على ذلك الشبح الأسود ..

وبخفة تثير الإعجاب ، تفادى (العقرب) انقضاضة (بكرى) ، وهو يقول :

ــ مهلًا أيها المخرتيت .

وبسرعة ، دار (العقرب) حول الضخم ، ورفع قدمه يضربه فى عامودَه الفقرى ، مستطردًا :

ــ ليس بالقوة يتحقّق النصر .

ارتطم (بكرى) بالحائط فى عنف ، وارتدّ عنه ككرة من المطاط ،

و (العقرب) يتابع :

ــ بل بالعقل .

تفجّرت الدماء من أنف (بكرى) ، الذى تحطّم عند ارتطامه بالحائط ، فهتف فى سخط :

ــ فليكن ، ولكننى سأستخدم عضلاتى .

قالها وانقضّ مرة أخرى على (العقرب) ، وكال له لكمة كالقنبلة ، تكفى لهدم جدار كامل ، ولكن هذا الأخير تراجع برأسه ونصفه العلوى إلى الخلف فى مرونة ، وهو يقول .

ــ ليس المهم أن تمتلك العضلات أيها الخرتيت .

ثم اعتدل ، ومال جانبًا ، وهوى بقبضته على فك (بكرى) ، مستطردًا :

ــ المهم أن تُحسن استخدامها .

ترنّح (بكرى) ، وهو يطلق صرخة ألم ، ولكن (العقرب) هوى على معدته بلكمة أخرى ، أعقبها بثالثة فى أنفه ، حتى سقط الضخم على ركبتيه ، وهو يهتف فى ألم يمتزج بالسخط :

ــ اللعنة !

أمسكه (العقرب) من شعره ، ودفعه إلى النهوض ، وهو يقول بلهجة آمرة قوية :

ــ من أرسلك أيها الفيل الغبى ؟

أمسك به (بكرى) فجأة ، وحمله فوق ظهره ، وألقاه أرضًا فى عنف ، وهو يقول فى حدة :

ــ لا تنتظر منى جوابًا أيها المقنّع .

ثم انتزع مسدسه ، وصوبه إليه ، مستطردا :

ــ فيما عدا هذا .

تحركت قدم (العقرب) فى سرعة ، وركلت المسدس من يد (بكرى) ، ثم قفز هو واقفا على قدميه ، وقال فى صرامة :

ــ فيما عدا ماذا ؟

لم يكد ينتهى من قوله ، حتى تحركت قبضته كقنبلة ، وهوت على فك (بكرى) ، ثم وثبت الأخرى ، تحطم ما تبقى من أنف هذا الأخير ، واندفعت قدمه تركل ركبة الضخم ، ثم انثنت ركبة ، وغاصت فى معدته ، وعندما انثنى (بكرى) ، وهو يمسك معدته المصابة ، ويطلق شهقة ألم ، ضمّ (العقرب) قبضتيه ، وهوى بهما على مؤخرة عنقه ، فأطلق خوار ألم ، وسقط على وجه عند قدمى بطلنا ..

وبسرعة ، أحاط (العقرب) عنق (بكرى) بذراعه ، وشدّد الضغط عليه ، وهو يكرر سؤاله فى صرامة :

ــ من أرسلك ؟

اختنق (بكرى) ، وهو يقول فى ألم :

ــ لا يمكننى القول .. سيقتلوننى لو فعلت .

تجاهل (العقرب) هذا الاعتراض ، وقال :

ــ أهو (كامل) ، أم (رضوان) ؟ .. (عماد) ، أم (جمال) ، أم (أشرف) ؟

بدأ (بكرى) يجاهد ؛ لالتقاط أنفاسه ، وهو يقول فى ضراعة :

ــ إنه (رضوان) .. اتركنى أرجوك .. لقد أخبرتك الحقيقة .. أقسم لك انها كذلك .

ترك (العقرب) عنقه ، وهو يقول :

ــ وأنا أصدقك .

راح (بكرى) يسعل فى ألم ، فى حين ألقى (العقرب) بطاقته إلى جواره ، وهو يستطرد :

ــ أخبر من أرسلوك أننى قد حصلت على ما كنت أنشده منهم ، وأننى خلفهم حتى النهاية .

أمسك (بكرى) عنقه ، وهو يقول فى توتر :

ــ لا تخبرهم أننى كشفت لك عن ..

اتسعت عيناه فى ذهول ، عندما التفت إلى حيث كان (العقرب) ، فوجد الحجرة خالية ، إلا منه ، وشباكها الوحيد مفتوح على مصراعيه ، مما جعله يغمغم فى خوف :

ــ أين ذهب ؟

مضت لحظة ، شمله خلالها الصمت والذهول ، ثم أدار عينيه فى حيرة إلى البطاقة البيضاء ، التى تحمل رسمًا لعقرب ذهبى ، وغمغم مستطردا :

ــ ومن هو ؟

دلف رفيقه إلى الحجرة بغتة ، وهو يقول :

ــ لماذا تأخرت ؟ .. إننى أنتظرك منذ فترة طويلة .

انتفض جسده فى ذعر ، وهتف :

ــ لقد أخفتنى .

عقد رفيقه حاجبيه ، وقال :

ــ أخفتك ؟! .. ماذا أصابك يا رجل ؟.. وأين هذا الصحفى ؟

قال (بكرى) فى توتر :

ــ لا يوجد أى صحفى هنا .. إنها خدعة .

رفع رفيقه حاجبيه ، هاتفًا فى دهشة :

ــ خدعة ؟!

أجابه (بكرى) ، وهو يناوله بطاقة (العقرب) :

ــ كان هناك شبح مقنّع ينتظرنى هنا ، ولقد هاجمنى ، وأجبرنى على ..

بتر عبارته بغتة ، عندما انتبه إلى ما سيوقع نفسه فيه ، ولكن رفيقه سأله فى صرامة :

ــ أجبرك على ماذا ؟

شحب وجه الضخم ، ولوّح بذراعيه فى رعب ، وهو يقول :

ــ لا .. لا شىء .. لم أقل كلمة واحدة .

ملأ الغضب ملامح رفيقه ، وهو يخرج مسدسه ، هاتفا :

ــ هل بحت له باسم السيّد ؟

كان من الممكن أن ينكر (بكرى) ، إلا أن أعصابه التى عانت الكثير ، لم تكن قادرة على الاحتمال ، فانهار قائلا :

ــ كنت مضطرًا .. لقد أجبرنى ..

هتف رفيقه فى غضب هائل :

ــ أيها الجبان .

وقبل أن يدرك (بكرى) ماينوى رفيقه فعله ، كان هذا الأخير قد ألصق فوهة مسدسه بجبهته ..

وأطلق النار .

* * *

٥ ــ جريمة ..

« قتلته ؟!.. »

هتف (رضوان) بهذه العبارة فى هلع ، قبل أن يمسك الرجل من ياقته فى عنف ، مستطردا :

ــ لماذا ؟.. لماذا قتلته ؟

أجابه الرجل فى صرامة :

ــ لأننى أبغض الجبناء ، الذين يدلون بكل مالديهم ، بعد لكمة أو لكمتين .

وابتسم فى خبث ، واستطرد :

ــ ثم إن قتله يحقّق الغرض المنشود .

سأله (رضوان) فى توتّر :

ـــ أى غرض ؟

أجابه فى حزم :

ـــ إرباك رجال الشرطة ، لو أن الأمر كله مجرَّد خدعة ، أو توريط الصحفى فى جريمة قتل ، لو أن الأمر ليس كذلك .. اسمعنى جيـدًا يا سيِّدى .. لقد تركت المسدس إلى جوار الجثة ، ومعه تلك البطاقة العجيبة ، التى تحمل رسم العقرب الذهبى ، ولما كان رجال الشرطة يجهلون علاقتى بـ (بكرى) ، فسيحيرهم وجوده قتيلًا ، أما لو كان الصحفى هو صاحب الخدعة كلها ، فسيصبح المتهم الأوَّل ، برتكاب الجريمة .. أليس كذلك ؟

عقد (رضوان) حاجبيه ، وهو يفكِّر فى الأمر ، قبل أن يقـول معترضًا :

ـــ ولكنه أخبر مهاجمه أننى وراء كل هذا .

ابتسم الرجل فى سخرية ، وهو يقول :

ـــ المهم هو الدليل .

ثم اتسعت ابتسامته ، وهو يستطرد فى ثقة :

ـــ لا أحد يمكنه أن يمسَّ شعرة واحدة من رأسك ، دون دليل مادى قوى .

ولكن الرجل كان مخطئًا ..

لقد نسى أنه لا يواجه القانون المكتوب ، وانما يواجه سيف العدالة البتار ..

يواجه (العقرب) ..

* * *

التقى حاجبا العقيد (مجدى) فى تفكير عميق ، وهو يتطلع إلى جثة (بكرى) ، التى التفّ حولها رجال المعمل الجنائى ، يلتقطون لها بعض الصور الضوئية ، ويجمعون من حولها الأدلّة ، ويرفعون البصمات ، فى حين راح بواب البناية يقول فى انفعال زائد :

ـــ كان باب الشقة مفتوحًا ، مما أثار شكى وقلقى ، وعندما قرعت الجرس ، لم يستجب لى أحد ، فدخلت إلى الشقة ، ووجدت هذا الرجل صريعًا ، فى حجرة النوم .

التفت إليه (مجدى) ، وسأله :

ـــ من يستأجر هذه الشقة ؟

أجابه البوَّاب :

ـــ إنها شقة مؤثَّثة ، استأجرها أمس صحفى ، يُدعى (أحمد عبد الغفار) ، ولكنه لم يدخلها حتى الآن .. لقد دفع إيجار شهر كامل ، ووقَّع العقد ، وحصل على المفتاح ، ثم انصرف ، ولم أره بعدها .

سأله (مجدى) :

ـــ وكيف يبدو (أحمد عبد الغفار) هذا ؟

هزَّ البواب كتفيه ، وقال :

ـــ شاب عادى ، نحيل بعض الشىء ، ويرتدى منظارًا طبيًّا و ...

بدا الوصف أكثر من عادى ، مما جعل (مجدى) يقاطعه ، قائلًا :

ـــ هل يمكنك تعرّفه ، إذا ما رأيته مرة أخرى ؟

هتف البواب :

ـــ بالتأكيد .

قال (مجدى) :

ـــ حسنًا .. اذهب الآن ، وسأستدعيك إذا ما احتجت إليك .

أسرع البوّاب ينصرف ، وهو يحمد الله (سبحانه وتعالى) ، على ابتعاده عن جثة القتيل ، فى حين التفت (مجدى) إلى رجال المعمل الجنائى ، وسألهم :

ـــ هل عثرتم على شىء ؟

نهض أحدهم ، وقدّم له بطاقة أنيقة ، وهو يقول :

ـــ هذه فقط .. وأظننى رأيت مثلها من قبل .

لم يكد (مجدى) يلتقط البطاقة ، حتى اتسعت عيناه فى شدة ، ووجد نفسه يهتف فى قوة :

ـــ (العقرب)؟!

التفت إليه رجال المعمل الجنائى فى دهشة ، ولكنه بدا كما لو أنه يتحدّث إلى نفسه ، وهو يستطرد فى انفعال :

ـــ هو إذن وراء كل هذا ! .. يا إلهى ! .. لقد وقع هذه المرة .

ثم اندفع فجأة مغادرًا المكان ، وتاركًا خلفه علامة استفهام ضخمة ، على وجوه رجال المعمل الجنائى ، الذين خيّم عليهم صمت تام ، وهم يحدّقون فى باب الحجرة المفتوح فى دهشة ، ثم لم يلبث رئيسهم أن هزّ رأسه ، وقال :

ـــ يا لرجال الشرطة !

وعاد الجميع يتابعون عملهم فى اهتمام ..

* * *

نفث (كامل) دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يقول :

ـــ شبح أسود مقنّع ، يترك خلفه بطاقة ، عليها رسم عقرب ذهبى ؟! .. ماهذا بالضبط يا (رضوان) ؟ .. فيلم سينمائى قديم ، أم أسخف كذبة سمعتها فى حياتى ؟

قال (رضوان) فى حدة :

ـــ لا هذا ولا ذاك يا (كامل) بك .. إنها الحقيقة بكل بساطة ، فلقد ظهر ذلك المقنّع فى منزل الصحفى ، وهاجم (بكرى) ، ومن الواضح أنه يسعى خلفنا ، وأنه يعدّ لنا شيئًا ما .

صاح (كامل) فى غضب :

ـــ أية سخافة هذه يارجل ؟ .. لماذا تبتكر قصة تافهة خيالية كهذه ، لتبرّر فشلك فى التخلّص من الصحفى ؟

ازدرد الدكتور (جمال) لعابه فى صعوبة ، وقال مرتبكًا :

ـــ ألا يحتمل أنها لعبة من هذا الصحفى ؟

عقد (كامل) حاجبيه فى شدة ، وقال :

ـــ لعبة ؟!

ثم اختطف سمّاعة الهاتف بحركة مباغتة ، وأدار قرص الهاتف فى سرعة ، ولم يكد يسمع صوت محدّثه ، حتى تغيّرت ملامحه بغتة ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ديبلوماسية ، وهو يقول :

ـــ صباح الخير يا (إبراهيم) بك .. أنا (كامل) .. (كامل شكرى) : نعم .. رئيس مجلس إدارة شركة البترول .. كيف حالك يا (إبراهيم) بك ؟، وكيف حال الجريدة ؟.. عظيم .

ثم مال إلى الأمام ، وأمسك سمّاعة الهاتف بكفيه فى اهتمام بالغ ، وهو يستطرد :

ـــ أخبرنى يا (إبراهيم) بك .. ألديكم صحفى يُدعى (أحمد عبد الغفار) ؟.. لا .. ليس (محمد عبد الغفار) .. بل (أحمد) .. عجبًا ! .. لا يوجد من يحمل هذا الاسم !!

قال الجزء الأخير ، وهو ينظر إلى الأربعة الآخرين ، فشحب وجه (أشرف) ، وامتقع وجه (جمال) ، وعضّ (عماد) شفته السفلى فى توتّر ، فى حين عقد (رضوان) حاجبيه فى شدة ، و (كامل) يستطرد :

ـــ لا ..ليس للأمر أهمية خاصة .. كل ما هناك أن شابًا يحمل هذا الاسم ، قد تقدّم للزواج من ابنة صديق لى ، وادّعى أنه صحفى فى جريدتك .. لا .. لا داعى لإبلاغ الشرطة .. سأنهى الأمر بأسلوبى الخاص .. شكرًا يا (إبراهيم) بك .. شكرًا كثيرًا .

وأعاد سمّاعة الهاتف ، وهو يقول فى حزم :

ـــ لم تكن خدعة من الصحفى يا (جمال) ، بل الصحفى نفسه هو الخدعة .

وعاد يلتقط سمّاعة الهاتف ، مستطردًا :

ـــ فى هذه الحالة يحتاج الأمر إلى تحريات من نوع آخر .

أدار قرص الهاتف مرة أخرى ، وقال عندما تمّ الاتصال :

ـــ صباح الخير يا (وجيه) .. أنا (كامل شكرى) .. اسمعنى جيّدًا .. أريد منك أن تجمع لى كل التحريات الممكنة ، من عالمك السفلى ، عن مقنّع أسود ، يترك خلفه بطاقة تحمل رسمًا لـ ...

اتسعت عيناه فجأة ، وهو يهتف :

ـــ تعرفه ؟!.. اسمه ماذا ؟ .. (العقرب) ؟!.. وما الذى يفعله (العقرب) هذا ؟.. أهو زعيم عصابة كبير أم ؟..

هبطت قلوب الأربعة الآخرين بين أقدامهم ، مع ذلك المزيج من الدهشة والخوف ، الذى ارتسم على وجه (كامل) ، وهو يستمع إلى محدّثه ، ومع انقباضة أصابعه الشديدة على سمّاعة الهاتف ، قبل أن يرتجف صوته ، وهو يقول :

ـــ هذا يكفى يا (وجيه) .. هذا يكفى .

وأعاد سمّاعة الهاتف إلى موضعها ، ثم اختطف علبة سجائره ، والتقط منها سيجارة ، أشعلها بأصابع مرتعدة ، دون أن ينتبه إلى أن سيجارته الأولى ما تزال مشتعله فى المنفضة ، فى حين خيّم على حجرته صمت رهيب ، اشترك مع الوجوه الشاحبة ، ليصنع لوحة للتوتّر ، قبل أن يقول (عماد) فى حدة :

ـــ ماذا أخبرك ؟

تطلّع إليه (كامل) فى شرود ، وهو ينفث دخان سيجارته ، ثم قال :

ـــ يقول أن (العقرب) هذا مكافح للجريمة ، لا يعرف أحد من هو ، ولا من أين يأتى ، ولا حتى كيف يختار خصومه ، فهو يبدو كما لو أنه يتشمّم أخبار الجرائم ، وينتقى منها مالا يروق له ، وهو يرتدى زيًا أسود اللون ، وقفازين وقناعًا فى لون الليل الملبد بالغيوم ، ولقد تصدّى لعمالقة ، وحطّمهم جميعًا من قبل ، على الرغم من قوتهم ، ومكانتهم الاجتماعية الكبيرة .

انهار (جمال) ، هاتفًا فى شحوب :

ـــ يا إلهى !.. لقد ضعنا .

التفت إليه (كامل) فى حدة ، وضرب سطح مكتبه بقبضته ، وهو يهتف :

ـــ لم يحن هذا بعد .

ثم نهض فى عنف ، مستطردًا :

ـــ أنتم تعلمون أن خطتنا محكمة للغاية ، ولا أحد يمكنه كشف أمرنا ، مهما بلغ ذكاؤه ، وكل ما يملكه هذا (العقرب) هو أن يسعى خلفنا . وعلينا أن نستعد لهجومه .

ورفع كفه أمام وجهه ، وفرقع سبّابته وإبهامه ، مردفا فى حزم :

ـــ ونقتنصه .

* * *

اقتحم (مجدى) مكتب (نديم) فى عنف ، واندفع داخله ، وعم (أحمد) يعدو خلفه ، صائحًا فى احتجاج واستنكار :

ـــ لا ياسيّدى .. لا يمكنك دخول المكتب هكذا .

ولكن (مجدى) تجاهله تمامًا ، ولوّح بسبّابته فى وجهى (نـديم) و (غادة) ، وهو يهتف :

ـــ لقد تجاوزت حدودك هذه المرة يا (نديم) .. تجاوزتها كثيرا .

عقدت (غادة) حاجبيها فى غضب ، فى حين رفع (نديم) عينيه إليه فى هدوء ، وهو يقول :

ـــ من منا تجاوز حدوده يا (مجدى) ؟.. إننى أجلس فى مكتبى ، أما أنت فتقتحم هذا المكتب دون استئذان ، ودون ..

قاطعه (مجدى) فى ثورة :

ـــ دعك من أسلوبك الملتوى هذا يا (نديم) .. كلانا يعلم أنك (العقرب) ، وأنك تتصوّر نفسك حامى العدالة الوحيد ، فى هذا العالم .

وعلى الرغم من نجاحك فى الإفلات منى أكثر من مرة ، فلن أسمح لك أبدا ببلوغ حد القتل .

تراجعت (غادة) فى حركة حادة ، هاتفة :

ـــ القتل ؟!

أما (نديم) فقد اكتفى بنظرة صارمة ، وهو يقول :

ـــ ماذا تقصد يا (مجدى) ؟

ألقى (مجدى) البطاقة فوق المكتب ، وهو يقول ثائرا :

ـــ أقصد هذه البطاقة ، التى عثرت عليها إلى جوار جثة رجل ، داخل شقة من الشقق المؤثثة ، فى حى (المنيل) .. هل تعرف هذه البطاقة يا (نديم) ؟. أليست بطاقتك ؟

بدا الاهتمام على وجه (نديم) ، وهو يلقى نظرة على البطاقة ، التى تحمل شعار (العقرب) ، ثم رفع عينيه إلى عم (أحمد) ، دون أن يفقد هدوء صوته ، وهو يقول :

ـــ اتركنا وحدنا يا عم (أحمد) .

أطاعه الكهل دون مناقشة ، فتراجع فى سرعة ، وأغلق الباب خلفه فى هدوء ، فالتفت (نديم) إلى (مجدى) ، وقال :

ـــ اجلس يا (مجدى) .

لم يطعه (مجدى) ، وإنما قال فى حدة ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجهه :

ـــ اسمع يا (نديم) .. لن يمكنك هذه المرة أن ...

قاطعه (نديم) فى صرامة :

ـــ اجلس يا (مجدى) .

كانت لهجته هذه المرة تحمل قدرا هائلا من الصرامة ، أصـاب

(مجدى) فى الصميم ، فارتفع حاجباه لحظة ، ثم عاد يعقدهما ، واخذ مجلسه على المقعد المقابل لمكتب (نديم) ، مغمغما :

ـــ لم أتصوّر أبدا أنك ستبلغ هذا الحد .

قال (نديم) فى حزم :

ـــ أخبرنى أوّلا ما حدث .

انطلق (مجدى) يروى له تفاصيل الأمر ، منذ إبلاغه بالجريمة ، وحتى وصوله إلى مكتبه ، واستمع إليه (نديم) فى اهتمام ، ثم تبادل نظرة صامتة مع (غادة) ، التى بدت شديدة التوتّر والقلق ، وقال :

ـــ ولكن هذا الأمر عجيب بالفعل يا (مجدى) ، فكلانا يعرف أن (العقرب) لا يميل أبدا للقتل .. أليس كذلك ؟

قال (مجدى) فى حدة :

ـــ من يدرى ؟

اندفعت (غادة) تقول :

ـــ من المؤكد أنها محاولة لتوريط (العقرب) .

رمقها (مجدى) بنظرة نارية ، وهو يقول :

ـــ حتى لو كان الأمر كذلك بالفعل ، فـ (العقرب) متهم بارتكاب جريمة قتل هذه المرة ، وسأستصدر من وكيل النيابة أمرا ، بإلقاء القبض عل ...

قاطعه (نديم) :

ـــ على من ؟.. (العقرب) ؟

ارتبك (مجدى) ، وانتبه فجأة إلى تلك المشكلة ، التى تعترض طريقه دائما ، ولكن هذا لم يزده سوى حنق ، فقال :

ـــ لن يمكنك الإفلات من العدالة إلى الأبد يا (نديم) .. سأثبت حتمًا أنك (العقرب) ، وسألقى القبض عليك ، بكل ما ارتكبته .

قال (نديم) فى هدوء :

ـــ هل تقتنع حقًا بأن (العقرب) قد ارتكب ما يوجب إلقاء القبض عليه ؟

نهض (مجدى) فى حدة ، وهو يقول :

ـــ إنه يخالف القانون .

تطلّع إليه (نديم) فى هدوء ، وقال :

ـــ ولكنه لا يقتل أبدًا يا (مجدى) .. خذها كلمة منى .

ران عليهما الصمت لحظة ، وكلاهما يتطلّع إلى عينى الأخر ، ثم لم يلبث (مجدى) أن انحنى ، والتقط البطاقة من أمام (نديم) ، ودسّها فى جيبه ، وهو يقول :

ـــ فليكن ، ولكن هذا لايمنعنى من تسليم هذه البطاقة للعدالة ، فهى أحد أدلة الاتهام ، فى جريمة قتل ، سيدفع فيها القاتل الثمن .

واتجه نحو الباب ، مستطردًا فى صرامة :

ـــ حتمًا .

وأغلق البابَ خلفه فى عنف ..

ومضت لحظات من الصمت ، قبل أن تسأل (غادة) :

ـــ ولكن لماذا ؟.. لماذا قتلوا الرجل ؟

أجابها (نديم) فى حزم ، بعد برهة من الصمت :

ـــ إنها حرب يا (غادة) ، وكل شىء مباح فى الحروب .

ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه إلى جزء من الحائط ، ضغط زرًا خفيًا إلى جواره ، فانكشفت فجوة فيه ، ظهر خلفها زى (العقرب) وقناعه ، و (نديم) يستطرد :

ــ وينبغـــى أن يـــدرك (العقرب) هذا .

لم تنبس (غادة) ببنت شفة ، وهى تتطلّع إلى زى (العقرب) الأسود .

لقد أدركت ما يعنيه (نديم) ..

إنها حرب ..

حرب بلا رحمة ..

٦ ــ طبول الحرب ..

اقتربت زوجة (رضوان) من زوجها ، وتطلّعت إليه فى قلق ، وهو يجلس أمام النافذة ، متطلّعًا إلى حديقة الفيلا فى خوف وتوتر واضحين ، ويفرك كفيه فى عصبية ، ولم تكد تضع يدها على كتفه ، حتى انتفض فى قوة ، والتفت إليها فيلمع ، فتراجعت فى دهشة وخوف ، وهتفت به :

ــ ماذا هناك يا (رضوان) ؟.. ماذا أصابك ، منذ عودتك من الشركة هذه المرة ؟

لوّح بيده فى عصبية ، وهو يقول :

ــ لا شىء .. لا شىء .. اتركينى وحدى .

قالت فى عناد :

ــ لا يمكننى أن أتركك وحدك .. إنك تعانى من توتر بالغ و ..

صاح بها فى حدة :

ــ قلت اتركينى وحدى .

عقدت حاجبيها فى غضب ، وهى تقول :

ــ أريد أن أفهم ما يحدث هنا .. لقد صرت بوّاب الفيلا ، وأتيت بدلاً منه برجلين ، كل منهما يذكرنى بعتاة المجرمين ، فى الأفلام القديمة ، ويحمل فى جيبه مسدساً ضخمًا ،تبرز ملامحه فى وضوح ، أسفل سترة ضخمة ، فلماذا تفعل كل هذا ؟.. ما الذى يهدّدك ؟

صرخ بها :

ــ قلت اتركينى وحدى .. هيا .. انصرفى .

غادرت المكان فى غضب ، وصفقت الباب خلفها فى عنف ، فقال فى

عصبية :

ــ اذهبى إلى الجحيم .

ثم عاد يجلس على المقعد المقابل للنافذة ، مستطردًا :

ــ أو يأتى الجحيم إلى هنا .

وعاد يرتجف ..

* * *

تحسَّس أحد الرجلين ، اللذين أحضرهما (رضوان) لحراسته ، مسدَّسه داخل سترته الواسعة ، ونقل إليه ملمسه شيئًا من الاطمئنان ، وهو يلتفت إلى زميله ، قائلاً :

ــ كم الساعة الآن ؟

تطلَّع زميله إلى ساعته ، وقال فى تكاسل :

ــ الثانية إلا خمس دقائق ، بعد منتصف الليل .

اكتفى الرجل بهذا الجواب ثوان ، ثم عاد يقول :

ــ أتظن شيئًا سيحدث الليلة ؟

هزّ زميله كتفيه ، وقال :

ــ لا .. لا أظن هذا .

ثم استدرك بسرعة :

ــ ولكننا سنقوم بواجبنا .

أجابه زميله :

ــ بالتأكيد .

ثم التقط علبة سجائره ، وناوله سيجارة ، ومدّ نفسه أخرى ، وهو يستطرد مبتسمًا :

ــ مادمنا نتناول أجرنا .

أشعل زميله السيجارتين ، ونفث كل منهما دخان سيجارته فى صمت ، قبل أن يقول الأوَّل :

ــ هل تصدّق قصة المقنّع هذه ؟

هزّ زميله كتفيه ، وقال :

ــ مهمتنا ليست التصديق ، أو دراسة الأمر .. نحن هنا لحراسة (رضوان) بك فحسب .

ابتسم الأوَّل ، وقال :

ــ أعلم هذا ، ولكن ماذا لو ... ؟

لم يتمّ عبارته هذه ، لأن ضوءاً غمرهما بغتة ، مع صوت توقّف سيارة مسرعة ، وصرير إطاراتها ، وهى تحتكّ بالأرض ، ففقز كلاهما ينتزع مسدّسه ، والتفتا إلى مصدر الصوت ، وقد تحفّزا للقتال ، لولا أن سمعا صوتًا أنثويًا رقيقًا ، يقول :

ــ معذرة .. هل يمكنكما أن ترشدانى إلى الطريق الرئيسى ؟

تطلّعا فى دهشة إلى الفتاة الجميلة ، التى تقف خلف باب الفيلا المعدنى مبتسمة ، ثم أسرع أوَّلهما يعيد مسدّسه إلى جيب سترته ، وهو يقول :

ــ بالتأكيد .. إنه قريب من هنا .

سألته فى عذوبة :

ــ أين ؟

أعاد الآخر مسدّسه إلى جيبه بدوره ، وابتسم وهو يتابع حديث زميله مع الفتاة ، عندما لاحظ أنه يطيل الشرح بلا داع ، حتى أومأت الفتاة برأسها ، وابتسمت ابتسامة جذّابة ، وهى تقول :

ــ شكرًا لك .. لقد ساعدتنى كثيرًا .

أجابها الرجل فى حماس :

ــ مرحبًا بك فى أى وقت .

لوّحت له بكفها ، وعادت إلى سيارتها ، وانطلقت بها بسرعة كبيرة ، والرجلان يتابعانها ببصرهما فى افتتان ، قبل أن يغمغم الأوّل :

ــ إنها جميلة .

علّق الثانى باقتضاب :

ــ وجذّابة .

شملهما الصمت لحظة أخرى ، ثم قال الأوّل ، وهو يطلق تنهيدة عميقة :

ــ لعل هذا أفضل ما فى ليلتنا هذه .

فى نفس اللحظة ، التى أطلق فيها هذه التنهيدة ، كانت الفتاة تقول لنفسها فى خفوت :

ــ هأنذا قد قمت بدورك يا (غادة) .. بقى أن ينجح (العقرب) فى القيام بدوره .

وواصلت ابتعادها بالسيارة ..

* * *

ألقى (رضوان) نظرة متوترة على ساعة معصمه ، ورفع عينيه إلى النافذة المطلّة على حديقة الفيلا ، ثم غمغم :

ــ لا .. لا أظن شيئًا يحدث الليلة .. إنها الثانية والنصف ، بعد منتصف الليل .

قالها ، وأطلق من صدره تنهيدة ارتياح ، ثم نهض من مقعده ،

مستطردًا :

ــ يمكننى الآن الذهاب إلى فراشى ، و ...

اختنقت العبارة فى حلقه ، وهو يدور حول مقعده ، وتصلّبت قدماه فى موضعهما ، واتسعت عيناه فى ذعر وذهول ، حتى كادتا تثبان من محجريهما ، وهو يحدّق فى وجه (العقرب) ، وقناعه الأسود الرهيب ، وقد جلس هذا الأخير هادئًا ، على مقعد يواجهه تمامًا ..

وران على الحجرة صمت مخيف ، أشبه بسكون المقابر ، قطعه صوت أسنان (رضوان) ، وهى تصطكّ ببعضها البعض ، ثم صوت (العقرب) ، وهو يقول فى هدوء مثير :

ــ هل أفزعتك ؟

وعلى الرغم من رجلى الحراسة فى الخارج ، لم يُطلق (رضوان) صرخة استنجاد واحدة ، وإنما سقط جاثيًا على ركبتيه ، وقال فى انهيار :

ــ الرحمة !

لم يغادر (العقرب) مقعده ، وإنما بقى جالسًا ، واضعًا إحدى ساقيه فوق الأخرى ، وعاقدًا أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول فى هدوء :

ــ الوقت سابق لطلب الرحمة يا (رضوان) ، فلم يبدأ حديثنا بعد .

هتف (رضوان) مرة أخرى ، وقد تجمّعت دمعة كبيرة فى عينيه :

ــ الرحمة ..!

تطلّع إليه (العقرب) مرة أخرى فى صمت ، بعينين خاليتين من أية تعبيرات ، وهو يقول :

ــ أظنك قد انتبهت إلى أن حارسيك لن يمكنهما منعى من الوصول إليك ، مهما حاولت ، فهما يوليان انتباههما إلى أمور خارج عملهما ،

بحيث يستطيع فيل ضخم التسلل من خلفهما إلى الداخل .

انهار (رضوان) تمامًا ، وهو يكرّر :

ــ الرحمة !. الرحمة !

مال (العقرب) نحوه فى بطء ، وتطلّع إلى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

ــ وما الثمن ؟.. ما ثمن الرحمة ؟

هتف (رضوان) متوسّلاً :

ــ سأمنحك كل ما تطلبه .. خذ نصف ثروتى .. بل ثروتى كلها ، ولكن اتركنى أحيا ..

أرجوك .

اعتدلَ (العقرب) ، وقال :

ــ لا .. لست أطلب نقودًا .

هتف (رضوان) :

ــ سأمنحك أى شىء تطلبه .

مال (العقرب) نحوه مرة أخرى ، فى حركة حادة ، وهو يقول فى صرامة مباغتة :

ــ أريد جوابا واحدًا .

انتفض جسد (رضوان) ، وهو يتراجع فى حركة عنيفة ، واتسعت عيناه فى شدة ، وهو يقول :

ــ جوابًا ؟!

سأله (العقرب) فى صرامة :

ــ كيف تختلسون البترول ؟

شحب وجه (رضوان) فى شدة ، ونهض بساقين مرتجفتين ، وألقى

جسده فوق أقرب مقعد إليه ، وهو يقول :

ــ ومن أخبرك أننا نختلس البترول ؟

ثم لوّح بيده كلها وهو يستطرد فى توتّر :

ــ أنت تعلم أنه من المستحيل اختلاس البترول ، فكل الآبار التابعة للشركة تنتج كميات معروفة من البترول ، يتمّ نقلها عبر أنابيب خاصة إلى ميناء (السويس) ، حيث تضخّ داخل خزانات هائلة . لناقلات البترول العملاقة ، ولا يمكن للناقلة أن تُبحر ، دون أن يمتلئ خزانها تمامًا ، وسعة خزان كل منها معروفة ، ولايمكن التلاعب بها .. وحتى لو اكتفت الناقلة بكمية أقل . فلن يسمح لها مسئولو الشركة هناك بهذا ، وكذلك الشركة ، التى يصل إليها البترول فى النهاية .

سأله (العقرب) فى اهتمام :

ــ وماذا لو تمّ إنشاء خط أنابيب فرعى ، ينقل جزءًا من البترول إلى ناقلات خاصة ؟

أجابه (رضوان) :

ــ هذا مستحيل ، فإنشاء خط أنابيب فرعى مشروع ضخم ، لا يمكن تنفيذه فى الخفاء ، ثم كيف يمكن نقل بترول إلى ناقلة بترول ، دون أن يخضع هذا لمراقبة ومتابعة الجهات المسئولة .

قال (العقرب) فى صرامة :

ــ إننى أنتظر منك جواب هذا السؤال .

عاد وجه (رضوان) إلى شحوبه ، وهو يقول :

ــ أى جواب ؟.. إننى لن ..

هبّ (العقرب) من مقعده بغتة ، وجذب (رضوان) من ياقته ،

قائلاً فى صوت يجمد له الدم فى العروق :

ــ أريد الجواب .

وفجأة انطلقت من خلف (العقرب) صرخة رعب هائلة ..

صرخة انطلقت من بين شفتى زوجة (رضوان) ..

وانقلبت الأمور رأسًا على عقب .

* * *

٧ ــ هجوم ..

لم تكد صرخة الزوجة تنطلق ، حتى انتفض حارسا الفيلا من موضعهما ، وهبّا واقفين ، وكل منهما ينتزع مسدّسه ، وهتف الأوّل :

ــ ماذا حدث ؟

أجابه الآخر دون انتظار :

ــ لست أدرى .. هناك شيء ما فى الفيلا .. هيا بنا .

انطلقا يعدوان نحو الفيلا ، فى نفس الوقت الذى تخلّى فيه (العقرب) عن (رضوان) ، والتفت إلى زوجته ، قائلاً :

ــ رويدك يا سيدّتى .. إننى لست لصاً .

لم تناقشه الزوجة ، وإنما أطلقت صرخة رعب أخرى ، وهى تحدّق فى قناعه الأسود ، وتتراجع فزعة ..

ثم اقتحم الحارسين الحجرة ..

ومع اقتحامهما ، عادت الشجاعة بغتة إلى (رضوان) ، فصاح :

ــ اقتلاه .. اقتلاه .

لم يكن أحدهما ينتظر صدور الأمر ، ففور اقتحامهما الحجرة ، رفع كل منهما مسدّسه إلى وجه (العقرب) ..

وفى نفس اللحظة تحرّك (العقرب) ..

استدار بسرعة ، واندفع نحو النافذة الزجاجية المغلقة ، وألقى جسده نحوها ..

وانطلقت رصاصتا الحارسين ..

وعبر (العقرب) النافذة مع الرصاصتين .

وعندما هبط إلى الحديقة ، كان قد علم أين استقرّت الرصاصتان ..

لقد عبرت إحداهما الزجاج معه ، أما الثانية ، فقد عبرت ساقه اليسرى . ومرقت إلى جوار عظمة الساق ، ثم خرجت من الناحية المقابلة ، مع خيط من الدم ..

وصرخ أحد الحارسين :

ــ لقد أصبته .. لقد أصبته .

واصلت زوجة (رضوان) صراخها . فاندفع زوجها نحوها ، وهوى على وجهها بصفعة قوية ، وهو يصرخ :

ــ اخرسى أيتها المأفونة .. اخرسى .. لا أريد فضائح هنا .

أسرع الحارسان يتطلعان إلى الحديقة ، عبر النافذة المكسورة ، وقال أحدهما فى توتّر :

ــ أين هو يا (زهدى) ؟

هتف (زهدى) فى عصبية :

ــ لا بد أنه هناك .. لقد أصابته رصاصتى .. أنا واثق من هذا .

صاح بهما (رضوان) :

ــ المهم ألا تسمحا له بمغادرة الفيلا حيًا ، ولو أنه نجح فى عبور أسوارها للدخول ؛ فلن نسمح له بعبورها للخروج .

هتفت زوجة (رضوان) فى فزع :

ــ ماذا يحدث يا (رضوان) ؟.. هل أصبت زعيم عصابة ؟

صرخ بها فى شراسة :

ــ اخرسى يا امرأة .

وعاد يلتفت إلى الحارسين ، مستطردًا :

ـــ أسرع إلى بوّابة الفيلا يا (سعد) ، ولا تسمح لمخلوق واحد بالخروج منهما ، حتى ولو اضطررت لقتله ، أما أنت يا (زهدى) فتعال معى .. سنفتش الحديقة كلها بحثًا عنه .

قالها واندفع نحو مكتبه ، وانتزع منه مسدّسًا كبيرًا ، فصرخت زوجته :

ـــ (رضوان) ؟!

تجاهلها هذه المرة ، وغادر الحجرة مع (زهدى) ، وأسرع كلاهما إلى الحديقة ، وأضاء (زهدى) مصباحًا يدويًا كبيرًا أسفل النافذة ، وهو يقول :

ـــ انظر ياسيِّدى .. هذه دماؤه .. لقد أصيب حتمًا ..

تلفَّت (رضوان) حوله ، وهو يقول فى توتّر :

ـــ ولكن أين ذهب ؟

أجابه (زهدى) فى انفعال :

ـــ سنجده حتمًا .. سنتتبّع خيط الدم ، حتى نبلغ مخبأه .

راحا يتتبعان خيط الدم فى حذر ، حتى بلغا شجرة ضخمة ، فرفع (زهدى) مسدّسه ، وقال فى حزم :

ـــ إنه فوق الشجرة .. أدفع عمرى مقابل هذا .

سمع من خلف الجذع صوتًا يقول :

ـــ يكفينى فكك .

وبرزت قبضة (العقرب) فجأة من خلف جذع الشجرة ، وهوت كالقنبلة على فك (زهدى) ، الذى ترنّح فى قوة ، وسقط مسدّسه من يده ، ولكن (رضوان) تراجع فى سرعة ، صارخًا :

ـــ لا .. ليس ثانية .

وأطلق رصاصة من مسدّسه ..

° ° °

ارتجف جسد زوجة (رضوان) فى رعب ، مع دوى الرصاصات ، فكتمت فمها بكفها ، خشية أن تنطلق منه صرخة أخرى ، وغمغمت فى هلع :

ـــ ياإلـهى !.. ما الذى يحدث هنا ؟.. هل أصيب الجميع بالجنون ؟

وراحت تتلفّت حولها فى خوف وتوتّر ، مستطردة :

ـــ ماذا أفعل يا إلـهى ؟.. ماذا أفعل ؟

وقع بصرها بغتة على الهاتف ، وقفزت إلى ذهنها فكرة ، جعلتها تتمتم :

ـــ نعم .. ولمَ لا ؟

أسرعت إلى الهاتف ، والتقطت سمّاعته ، وأدارت قرصه بأصابع بلغت عصبيتها ذروتها ، ولم تكد تسمع صوت محدّثها ، حتى هتفت :

ـــ (كامل) بك .. حمدًا لله أننى وجدتك .. يؤسفنى إيقاظك فى مثل هذه الساعة .

أدرك (كامل شكرى) على الفور ، أن (رضوان) يتعرّض لنوع ما من المتاعب ، وبثّ هذا الكثير من التوتر فى أعماقه ، على الرغم من صوته ، الذى حافظ على هدوئه ، وهو يقول :

ـــ لا .. إننى لم أنم بعد .. ماذا هناك ؟.. هل أصاب (رضوان) مكروه ما ؟

أجابته فى اضطراب واضح :

ـــ لست أدرى .. إنه يتصرّف على نحو عجيب .. كل شىء هنا

مخيف .

قال فى حزم :

ــ اهدئى يا سيّدتى ، وأخبرينى ماذا حدث بالضبط ؟

قالت فى ارتباك :

ــ لقد ظلّ (رضوان) ساهرًا ، حتى الثانية والنصف صباحًا ، ولقد أقلقنى هذا ، فهبطت إلى مكتبه ؛ لأطمئن عليه ، ففوجئت برجل مقنّع فى مكتبه .

هتف (كامل) ، وقد قفز توتّره إلى الذروة :

ــ مقنّع ؟!.. هل وجدت ذلك المقنّع المتشح بالسواد فى مكتبه ؟

قالت السيّدة فى دهشة :

ــ هل تعرفه يا (كامل) بك ؟

صاح بها ، متجاوزًا كل حدود اللياقة :

ــ دعك من هذا الآن ، وأخبرينى .. ماذا حدث عندئذ ؟

أجابته بسرعة :

ــ لقد أطلقت صرخة ، فأسرع الحارسان الجديدان إلى الفيلا ، وأطلقا النار على ذلك المقنّع ، ولكنه قفز عبر النافذة إلى الحديقة .. أحد الحارسين يقول : إنه قد أصابه برصاصة ، ولقد خرج الجميع للبحث عنه فى الحديقة ، وسمعت (رضوان) يأمر الرجلين بقتله ، وأنا أشعر بخوف شديد يا (كامل) بك ، خاصة وقد سمعت طلقًا ناريًا فى الحديقة ، وأخشى أن .. .

قاطعها (كامل) :

ــ سأقوم باللازم يا سيّدتى .. اطمئنى .

وأنهى المحادثة فى عصبية ، ثم أشعل سيجارته ، وهو يحدّث نفسه ، قائلاً :

ــ إذن فقد هاجم ذلك (العقرب) (رضوان) .. يا للسرعة ، التى تجرى بها الأمور !

نفث دخان سيجارته مرات فى عصبية ، ثم قال فى حزم :

ــ الأمر يحتاج إذن إلى تدخل سريع .

ثم عاد يرفع سماعة الهاتف ، ويطلب رقمًا جديدًا ، وقال لصاحبه :

ــ إنه أنا يا (وجيه) .. (كامل شكرى) .. نعم .. أعلم كم الساعة الآن .. أريدك أن تجمع رجالك على الفور ، وتتجه بهم إلى فيلا (رضوان) ، فهو يقاتل (العقرب) هناك .. نعم .. (العقرب) .. وأنا أريد هذا (العقرب) الليلة يا (رضوان) .. مسحوقًا .

وأنهى المحادثة ..

° ° °

من العجيب ، فى هذه الحياة ، أنه حتى للخطأ فوائده ، وأن البعض يفيد من أخطاء الآخرين ..

وهذا ماحدث ..

فعلى الرغم من أن (رضوان) يمتلك مسدسًا ، ويحمل ترخيصًا خاصًا بحمله واستخدامه ، إلا أنه لم يطلق منه ، فى عمره كله ، سوى رصاصة واحدة ، وهى تلك التى أطلقها على (العقرب) ، فى حديقة الفيلا ..

وكان هذا من حسن حظ (العقرب) ..

لقد أطلق (رضوان) رصاصته نحو بطلنا ، ولكنه لم يصب هدفه ، وإنما انحرفت الرصاصة ، وأصابت جذع الشجرة ، فتراجع (العقرب) بسرعة ، وانحنى يلتقط مسدّس (زهدى) ، وهو يقول :

ــ دورى يا (رضوان) .

ولكن (رضوان) ألقى مسدّسه فى رعب ، ورفع ذراعيه فوق رأسه ، وهو يهتف مرتجفًا :

لا .. لا .. إننى أستسلم .

شعر (زهدى) بغضب هائل فى أعماقه ، وهو يرى كل ذلك الخوف ، فى ملامح (رضوان) وتصرفاته ، ونهض فى بطء ، وهو يقول ساخطًا :

ــ يا للعار !.. نستسلم لرجل مصاب ؟

هزّ (العقرب) كتفيه ، وقال :

ــ هذا قدرك يا رجل .

ثم استدار إلى (رضوان) ، وتابع فى صرامة :

ــ مازلت أنتظر جواب سؤالى يا (رضوان) .

تصبّب عرق الخوف على وجه (رضوان) ، وهو يقول :

ــ لست أملك جوابًا .

جذب (العقرب) إبرة مسدّسه ، وهو يقول :

ــ هل تراهن على هذا ؟

ولكن فجأة زال الرعب عن ملامح (رضوان) ، واستعاد بعض شجاعته ، وهو يقول فى حدة :

ــ نعم .. أراهن .

وفى نفس اللحظة اندفع من خلف (العقرب) صوت صارم ، يقول :

ــ هل يمكننى المشاركة فى هذا الرهان ؟

وهنا صاح (هدى) :

ــ اقتله يا (سعد) .

تراجع (العقرب) فى حركة غريزية حادة ، والتفت يواجه خصمه الجديد ، إلا أن (زهدى) اندفع خلفه كخرتيت ثائر ، وهو يكرّر صارخًا

ــ اقتله .

ثم هوى بقبضته على فك (العقرب) ، بكل ما يملأ نفسه من غضب وثورة ..

وأصابت اللكمة هدفها هذه المرة ..

واختلّ توازن (العقرب) ، مع قوة اللكمة ، وساقه المصابة ، وارتطم ظهره بجذع الشجرة ، فكال له (زهدى) لكمة أكثر قوة ، وهو يصرخ :

ــ أو أقتله أنا .

كانت الضربة بالغة القوة ، ضربت رأس (العقرب) بجذع الشجرة ، فأظلمت الدنيا أمام عينيه ، ومادت به الأرض ..

وسقط ..

سقط (العقرب) فاقد الوعى ..

سقط بين خصومه ..

وران صمت رهيب لحظة ، وكأنما لا يصدّق هؤلاء الخصوم أنهم قد أوقعوا بـ (العقرب) ، ثم هتف (زهدى) فى ظفر :

ــ لقد أوقعنا به .

انتابت (رضوان) فرحة جنونية ، وهو يصرخ :

ــ نعم .. لقد أوقعنا به .. لقد أوقعنا به .

بدا الانفعال على وجه (زهدى) ، وهو يقول :

ــ يكاد يقتلنى الفضول لنزع قناعه ، ورؤية وجهه .

أجابه (رضوان) بنفس الانفعال :

ــ إننى أشاركك هذا الفضول .

ثم اعتدل قائلاً فى حزم :

ــ هيا .. انزع قناعه .

أطاعه (زهدى) فى سرعة ، وانحنى لينزع القناع ..

قناع (العقرب) .

[نهاية الجزء الأوّل]

اقرأ الجزء الثانى ، فى العدد القادم من
كوكتيل ٢٠٠٠

الخوف

(قصة قصيرة)

ازدرد (لطفى) لعابه فى توتر ، وهو ينطلق بسيارته عبر ذلك الطريق المقفر ، الذى يربط مابين طريق (الإسماعيلية) ومصيف (فايد) ، مع غروب الشمس ، وسرى فى نفسه ذلك الخوف التقليدى ، الذى ينتابه كلما قطع هذا الطريق ، فى فصل الشتاء ، عندما يخلو من السيارات تقريبا ، بحيث يخيّل إليه فى كل مرة أنه ينطلق فى عالم آخر ، فنت الحياة على سطحه إلا منه ، وأصبح أخشى ما يخشاه أن يهاجمه لص أو قاطع طريق ، مستغلاً خلو الطريق ، فيقتله أو يستولى على أمواله ..

فى كل مرة كانت نفس المخاوف تراوده ، وتدفعه إلى أن يلعن إصرار زوجته على شراء تلك الفيلا فى (فايد) ، وقضاء معظم أيام السنة فيها ، مما يجبره على السفر من (القاهرة) ، حيث عمله ، إلى (فايد) ، مرتين أسبوعيًا على الأقل ..

ومع اتجاه الشمس إلى المغيب ، راحت مخاوفه تتضاعف وتتزايد ..

ثم لمح فجأة تلك السيارة ، التى تأتى خلفه ، فى مرآة سيارته ..

ولسبب ما ، سرت فى جسده ارتجافة ، مع مرأى السيارة الأخرى ، فازدرد لعابه مرة ثانية ..

ثم انتفض جسده دفعة واحدة ..

انتفض مع صوت رنين مكتوم ، انبعث من مؤخرة سيارته ، ثم تلاشى بسرعة ، فغمغم فى ضيق :

ــ يبدو أن السيارة العجوز قد بدأت تعانى ، من ذلك السفر المتكرّر .

انحنى مع اتجاه الطريق ، وواصل سيره بعض الوقت ، حتى اختفت الشمس فى الأفق ، ثم رفع عينيه مرة أخرى إلى مرآة السيارة ، متطلّعًا إلى تلك السيارة الأخرى ..

وهنا انتفض جسده بالفعل ..

كانت السيارة تنطلق بسرعة كبيرة ، وكأنها تسعى للحاق به ..

وبحركة غريزية ، ضغط (لطفى) دوّاسة الوقود ، وزاد من سرعة سيارته ، ولكن السيارة الأخرى زادت من سرعتها بدورها ، فغمغم (لطفى) فى قلق :

ــ هل يطاردنى أم ماذا ؟

ارتجف جسده فى رعب ، عندما لحقت به السيارة ، ثم مال بها سائقها نحوه ، وأطلّ من نافذتها بوجهه الضخم الغليظ ، وحاجبيه الكثين ، وأشار إليه بالتوقّف ..

وهنا ذاب فى نفسه كل شك ..

إنه يطارده بالفعل ..

هاهى ذى مخاوفه تتحوّل إلى حقائق ..

حانت لحظة مواجهة كل ما يخشاه ..

وبكل الرعب الكامن فى أعماقه ، منذ ارتاد هذا الطريق بسيارته لأوّل مرة ، ضغط (لطفى) دوّاسة سيارته بكل قواه ، وضاعف من سرعتها

مرتين على الأقل ، وانطلق بها كالصاروخ ..

ولكن السيارة الأخرى ضاعفت من سرعتها بدورها ..

إنها مطاردة ولا شك ..

ارتجف فى قوة ، وتمنّى لو لاحت أضواء (فايد) ، لتبدّد مخاوفه ، وتقيه هذا الخطر ..

ولكن يبدو أن قائد السيارة الأخرى يصرّ على مطاردته ، وأن سيارته أقوى كثيراً من هذه السيارة ، إذ أن المطاردة تسير فى غير صالح (لطفى) ، الذى راح العرق يتصبّب على وجهه ، وهو يقول فى ضراعة :

ــ أسرعى أيتها السيارة العجوز .. أسرعى أيتها اللعينة ..

صورّ له خياله السيارة الثانية ، وهى تلحق به ، وتجبره على التوقّف ، ثم يهبط منها قائدها بوجهه القاسى ، ومسدّس ضخم فى قبضته ، ويجبره على أن يمنحه كل أمواله ، أو يقتله ليستولى على سيارته ..

وهو لا يملك سلاحًا للأسف ..

أى سلاح ..

اقتربت منه السيارة الثانية مرة أخرى ، وارتفع نبض قلبه ،وهو يكتشف فشل سيارته فى الفرار من المطاردة ، وراح يسأل نفسه فى رعب :

ــ ماذا أفعل لو لحق بى ؟.. كيف أدافع عن نفسى ؟. اللعنة على أفكار زوجتى ، وعلى هذه السيارة العجوز !.

أدرك أن نهاية المطاردة قد حانت، عندما أصبحت السيارة الثانية موازية له تمامًا ، فهتف لنفسه فى رعب :

ــ لا بد أن أجد سلاحًا .. لن أستسلم هكذا .

انحرفت السيارة الثانية نحوه مرة أخرى ، ولوّح له سائقها بالتوقّف ، فانحرف بدوره على نحو غريزى ، محاولاً الإفلات منه ..

وتجاوزت سيارته الطريق الأسفلتى ، واندفعت بضع لحظات فى الرمال الكثيفة ..

ثم توقّفت بغتة ..

وهوى قلب (لطفى) بين قدميه ..

لقد وقع ..

خسر المطاردة .. ووقع ..

وفى مرآة سيارته ، رأى قائد السيارة الأخرى يغادر سيارته بدوره ، ثم يتجه إليه بجسمه الضخم المخيف ، وهو يحمل شيئًا ما فى يده ..

شىء أشبه بساطور ضخم ..

لقد أصبحت مسألة حياة أو موت ..

والتقط (لطفى) أوّل شىء وقعت عليه يده ..

ثم غادر السيارة ..

غادرها وهو يحمل أحد أدواته الهندسية ، التى يُدرك جيداً مدى ضعفها ، عندما تواجه ساطورًا ضخمًا ، وارتكن إلى السيارة يرتجف كريشة فى مهبّ الريح ، والضخم يقترب منه فى بطء مخيف ..

وأخيرًا أصبح الرجل أمامه تمامًا ، واتسعت عينا (لطفى) فى رعب ، وعجزت يده حتى عن رفع أداته الهندسية الضعيفة ، والرجل ينظر إليه فى صرامة ، قائلًا :

ــ لقد أتعبتنى كثيرًا .

لم يجرؤ على النطق بحرف واحد ، حتى رفع الرجل ذلك الشىء ، الذى تصوّره (لطفى) ساطورًا ضخمًا ، وهو يقول :

ــ خذ .

تناول (لطفى) هذا الشىء فى آلية ، والرجل يستطرد :

ــ لقد سقطت منك ، وأنا أحاول اللحاق بك طوال الطريق ؛ لأعطيك إياها .

قالها ، واستدار عائدًا إلى سيارته ، وتاركًا (لطفى) مفغور الفاه ،

يحدق فى ظهره فى ذهول ، قبل أن يرفع ذلك الشىء ، ويتطلع إليه فى دهشة ..

لحظتها فهم كل شىء ..

الرنين المكتوم ..

مطاردة الرجل له ..

كل شىء ..

كان هذا الشىء هو لوحة الأرقام المعدنية الخلفية لسيارته ..

وفجأة انفجر (لطفى) ضاحكًا ..

لقد كانت مطاردة زائفة ..

كل مخاوفه لم تكن تعنى شيئًا ..

وبدون أن يدرى ، وجد نفسه يلوّح للسيارة الأخرى ، وهى تبتعد ، هاتفًا :

ــ شكرًا لك ..

واتسعت ابتسامته فى مرح ، وهو يعود إلى سيارته ، قائلاً :

ــ يا للمخاوف السخيفة !

وألقى نفسه داخل السيارة ، ثم أدار المحرّك ..

وهنا برزت داخله مخاوف أخرى ، لم تراوده أبدًا من قبل ..

مخاوف تحوّلت بغتة إلى حقيقة ..

لقد رفض محرّك السيارة العجوز الاستجابة ..

وبكل الرعب ، حاول (لطفى) إدارة المحرّك ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن هيهات ..

لن يستجيب المحرّك أبدًا ، وسيكون عليه أن يواجه ما لم يخطر بباله من قبل ..

قضاء الليل هنا ..

فى قلب الخوف .

* * *

كوكتيل

روايات مصرية للجيب

قصة كاملة

الجنّى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

١ ــ مراهنة ..

كانت ليلة صافية ، خلت السماء فيها من الغيوم تمامًا ،وتوسّطها بدر مكتمل الاستدارة ، كقرص من فضة لامعة ، أضاء المدينة الصغيرة بضوئه الحانى ، وألقى ظلًا طويلًا لفيلا قديمة مهجورة ، عندما اقترب منها عدد من الصبية فى حذر ، وتطلّعوا إليها فى خوف ، وهم يلتفّون حول أحدهم ، الذى بدا أكثرهم تماسكًا ، ووجهه الصغير يحمل أمارات الصرامة والعناد ، وقال له أحد رفاقه :

ــ أما زلت تصرّ يا (وائل) ؟

أومأ (وائل) ، ذو السنوات التسع ، برأسه إيجاباً فى حزم ، قبل أن يجيب :

ــ نعم .. سأدخل الفيلا ، على الرغم من كل الشائعات ، التى تتردَّد حولها .

تمتم أحد الصبية فى سخرية ، تمتزج بشىء من الخوف والرهبة :

ــ أراهن أنه سيعدو مذعورًا ، عندما يصبح أمام باب الفيلا .

هتف به (وائل) فى غضب :

ــ أراهنك على دراجتك الجديدة .

ثم اعتدل فى اعتداد ، وأزاح رفاقه ، وسار بخطوات سريعة نحو الفيلا ،

وهو يقول فى صرامة :

ــ ولن أسمح لك بركوبها ، عندما تصبح ملكى .

قطع المسافة ، من موضع الصبية إلى سور الفيلا ، فى خطوات سريعة ، ثم توقّف لحظة أمام البوّابة المعدنية ، وازدرد لعابه ، وهو يُلقى نظرة جديدة على الفيلا ، والظلال الممتدّة منها ، على ضوء القمر ..

كان يعرف جيدًا كل الشائعات ، التى تتردّد حول تلك الفيلا ، كما يعرفها كل سكان مدينته ، ويخشى المكان ، كما يخشاه الجميع ..

فمنذ عشر سنوات ــ حسبما سمع ــ كان يقيم فى هذه الفيلا رجل غريب الأطوار ، يقضى كل وقته داخل الفيلا ، ولا يغادرها إلا فيما ندر ، مستقلاً سيارته العتيقة الطراز ، فينطلق إلى جهة ما ، ويقضى فيها نهاره كله ، ثم يعود مع منتصف الليل تقريبًا ، حاملاً عدة صناديق ، لا يدرى أحد ما تحويه ، أو ما الهدف منها ..

ولم يكن ذلك الرجل اجتماعيًا ، بحيث يُمكن سؤاله عن طبيعة عمله ، وإنما كان صارماً ، عنيدًا ، يرفض الاختلاط بالآخرين ، أو حتى استقبالهم ، كما كان يحيط حياته كلها بإطار من الغموض ، أثار فضول أهل المدينة الصغيرة كلهم ، حتى لقد حاول بعضهم استنطاق ذلك الخادم الكهل ، الذى يأتى لتنظيف الفيلا كل أسبوع ، ولكن حتى ذلك الخادم كان يجهل كل شىء عن مخدومه ، إذ كان هذا الأخير يقضى وقته كله داخل قبو الفيلا ، دون أن يسمح لخادمه بدخوله ، أو حتى تنظيفه ..

ثم فجأة ، اختفى الرجل ..

اختفى تمامًا ، دون أن يترك خلفه أدنى أثر ..

والعجيب أن أحدًا لم ينتبه إلى اختفائه ، إلا عندما حضر خادمه ، فلم يعثر له على أثر داخل الفيلا ، على الرغم من وجود سيارته العتيقة خارجها ..

وأبلغ الخادم الشرطة ، التى قامت بتفتيش الفيلا كلها ، وكذلك القبو ، الذى كان لدهشة الجميع ــ خاليًا ، إلا من مقعد قديم متهالك ، وبعض أوعية زجاجية محطَّمة ..

ولعام كامل ، أجرت الشرطة تحرياتها ، ووزّعت نشرة بأوصاف الرجل ، ولكن دون جدوى ..

لقد اختفى تمامًا ..

وبسرعة أطلق أهل المدينة شائعة ، تقول : إن الرجل كان أحد المتعاملين مع الجن ، ثم خالف أوامرهم ، فسحبوه إلى عالمهم تحت الأرض ..

ولاقت الشائعة ــ على غرابتها ــ قبولاً عجيبًا ، واستقبلها أهل المدينة كما لو كانت حقيقة لا تقبل الشك ، فلم يقترب أحدهم من الفيلا ، وتركوها مهجورة على هذا النحو ..

ثم حدث ما جعل الشائعة تتحوَّل إلى حقيقة ..

فذات يوم ، فكَّر أحد اللصوص فى الاستيلاء على محتويات الفيلا ، أو البحث عن ثروة الرجل ، المختفاة فى مكان ما منها ، فتسلَّل إليها تحت جنح الظلام ، ثم ...

ثم أصيب بالجنون ..

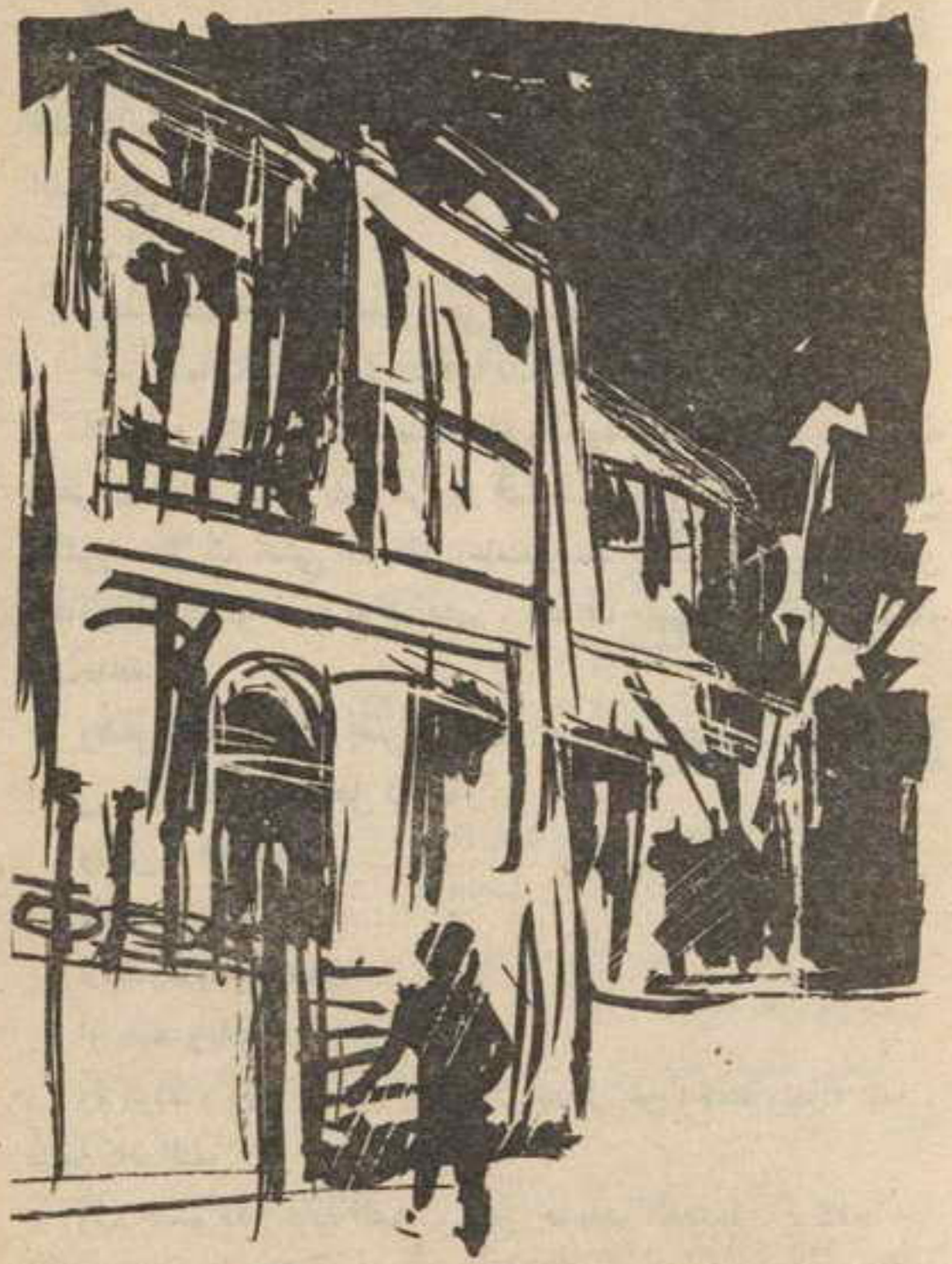

نعم ..

لقد سمعه جيران الفيلا يُطلق صرخات رعب هائلة ، ويطلب النجدة ، فاتصلوا بالشرطة ، التى هرعت إلى المكان ، وألقت القبض على اللص ، الذى ظلّ يطلق صراخ رعب ، وهو يردّد :

ــ الجنى .. الجنى .

ومنذ ذلك الحين ، لم يجرؤ حتى اللصوص على دخول الفيلا ..

عشر سنوات كاملة ، لم تطأ فيها قدم مخلوق واحد هذه الفيلا ..

انتفض (وائل) فجأة ، عندما بلغ بتفكيره هذه النقطة ، وشعر بقلبه ينبض فى قوة ، ويكاد يثب من بين ضلوعه ، وراودته فكرة التراجع والفرار ، إلا أنه خشى أن يفقد زعامته وسط الصبية الآخرين ، الذين اعتادوا أن يتركوا له زمام قيادتهم ، اعترافًا منهم بأنه أكثرهم ذكاءً وشجاعة ..

وشعر بالندم ؛ لأنه أعلن فى لحظة زهو ، استعداده لدخول (فيلا الجنى) كما يُطلق عليها أهل المدينة ..

ولكن ما الفائدة ؟..

لقد ضاع وقت الندم ..

لا بد أن يدخل الفيلا ..

أو يفقد زعامته ..

ولم يتردّد (وائل) طويلًا ، فهو لن يتنازل عن زعامته وتفوّقه أبدًا ، مهما كان الثمن ..

وفى حسم دفع بوّابة الفيلا ، وعبر حديقتها القصيرة ، ثم دفع بابها الكبير ، الذى لم يغلقه أحد ، منذ إلقاء القبض على اللص ، وسمع ذلك

الصرير المخيف ، الذى أطلقته مفاصل الباب ، وهو يتحرّك مفتوحًا ، فارتعد قلبه الصغير وسط ضلوعه ، ووقف يتطلّع إلى الظلام داخل الفيلا فى خوف ..

كان الموقف رهيبًا بحق ..

كان ضوء القمر يتسلّل عبر الباب المفتوح ، ويسقط على قطع الأثاث القديمة ، فتمتدّ منها ظلال طويلة داكنة ، تنكسر عند الحائط المقابل ، وتمتزج بظلام الفيلا من الداخل ..

وبأصابع مرتجفة ، أشعل (وائل) مصباحه الضوئى الصغير ..

وخطا داخل الفيلا ..

وفى الخارج ارتجف رفاقه ، وامتلأت قلوبهم بالرعب ، مجرّد رؤيته يدلف إلى الفيلا ، وغمغم أحدهم فى هلع :

ــ يا إلـهى !.. لم أكن لأفعل مافعله (وائل) هذا ، ولو منحونى كل قطع الحلوى ، فى العالم كله .

ارتجف صوت صبى بدين ، وهو يقول :

ــ من الواضح أن (وائل) شجاع بحق .

انبعث صوت عصبى حاد ، يقول :

ــ المهم أن يعود .

التفتت العيون كلها إلى صاحب الصوت الحاد ، ثم ابتسم البدين فى خبث ، وقال :

ــ من المؤكد أن شجاعة (وائل) قد أحنقتك يا (هيثم) ، فأنت تسعى لزعامة (الشلة) منذ زمن .

قال (هيثم) فى عصبية :

ـ إننى أستحقها .

اتسعت ابتسامة البدين ، وحملت مزيدا من الخبث ، وهو يقول :

ـ ألم أقل لك ؟

احتقن وجه (هيثم) فى غضب ، وهتف :

ـ هل تعلم أننى أستطيع كسر أنفك و ...

قاطعه البدين :

ـ نعم .. أعلم هذا .

ثم أشار إلى الفيلا ، مستطردا فى تحد :

ـ ولكن هل يمكنك دخول الفيلا ، مثلما فعل (وائل) ؟

نقل (هيثم) عينيه إلى الفيلا ، وارتجف مع مشهدها الرهيب ، تحت ضوء القمر ، ثم أشاح بوجهه فى خوف ، قائلا فى عصبية :

ـ لا .. لا يمكننى هذا .

كان سماع هذه العبارة ، التى تحمل اعترافا ضمنيا بزعامة (وائل) ، كفيل بتفجير كل سعادة هذا الأخير وزهوه ، لولا أنه كان فى هذه اللحظة يرتجف بحق ، وهو يسير عبر ممرات الفيلا ، ورأسه يحمل تساؤلات لا حصر لها ..

كيف يبدو هذا الجنى ؟..

أهو مخلوق بشع الخلقة ، يبرز من رأسه قرنان حادان ، أم يشبه البشر ، كما يقول والده ؟..

أهو طيب أم شرير ؟..

هل يحمله إلى قاع الأرض ، أم يكتفى بإخافته فحسب ؟..

ثم ما الذى فعله مع اللص ، قبل مولده هو بعام كامل ؟..

فجأة تجمدت كل الأسئلة والأفكار فى عقله ، وهو يحدق فى تلك

الظاهرة العجيبة ، التى وقع عليها ضوء مصباحه بغتة .

كان هناك حائل نصف شفاف يقف بينه وبين الحائط المقابل ..

وهوى قلبه بين ضلوعه ، عندما بدا له ذلك الحائل أشبه بجسد بشرى من زجاج ، يتحرك كما لو أن الروح تموج فى نفسه ..

وبحركة غريزية ، رفع (وائل) ضوء مصباحه إلى أعلى ذلك الجسد نصف الشفاف ، ثم انتفض جسده كله فى قوة ، عندما وقع ضوء المصباح على الوجه ..

وجه الجنى .

° ° °

٢ ــ ألمسّ ..

بدأ القلق يرسم خطوطه العميقه على وجوه الصبية الصغار ، وهم يتطلّعون إلى الفيلا ، إلتى بدت لهم أكثر رهبة وإفزاعًا ، مع مرور الوقت ، وارتجف صوت أحدهم ، وهو يقول :

ــ هل نبلغ الشرطة ؟

وعلى الرغم من أن زميله البدين كان أكثر قلقًا ، إلا أنه غمغم :

ــ لا .. ليس بعد .

هتف (هيثم) بعصبية كعادته :

ــ ماذا تعنى ب (ليس بعد) يا (تامر) ؟.. لقد مضت نصف الساعة ، منذ دخل (وائل) إلى الفيلا ، وهذه فترة زمنية طويلة ، قد تعنى أنه فقد وعيه من شدة الرعب ، أو أصيب بضرر ما .

قال (تامر) فى حدة :

ــ (وائل) لن يفقد وعيه من شدة الرعب ، مهما حدث ، فهو أشجعنا .

همس صبى آخر ، والخوف يملأ نفسه :

ــ وماذا لو أنه التقى بالجنى ، فحمله هذا الأخير إلى أعماق الأرض ، كما فعل مع صاحب الفيلا ، منذ عشر سنوات ؟

هوى ذلك الاحتمال على رءوسهم كصفعة قوية ، ألجمت ألسنتهم ، وحبست الكلمات فى حلوقهم ، فراحوا يتطلّعون إلى بعضهم البعض فى قلق وخوف ، وكل منهم يحاول أن يستنكر فى أعماقه هذا الاحتمال ، فى حين استسلمت عقولهم له ، واستكانت لما قد يعنيه ..

ثم اتسعت عينا (تامر) فجأة ، وهتف فى فرح :

ــ لا .. لم يحدث شىء من هذا .. لقد عاد (وائل) .

التفتت العيون كلها إلى الفيلا فى دهشة ، وتركزت على (وائل) ، الذى غادر باب الفيلا فى هدوء شديد ، وعبر الحديقة بخطوات عادية ، قبل أن يتجاوز بوّابة الفيلا ، ويتجه نحو رفاقه فى صمت ..

والعجيب أنهم قد استقبلوه فى صمت مماثل ، لفّهم جميعًا دقيقة كاملة ، قبل أن يكسره (تامر) البدين ، وهو يسأل (وائل) فى تردّد :

ــ ماذا حدث هناك ؟

التفت إليه (وائل) فى صمت ، وبدا وكأنه يراه لأوّل مرة ، قبل أن يقول فى هدوء ، وبابتسامة بدت للجميع شديدة الغموض :

ــ لا شىء .. لم يحدث شىء .

تبادل الجميع نظرات الدهشة والحيرة ، ثم غمغم (هيثم) :

ــ ألم تلتق بالجنى ؟

هزّ (وائل) رأسه نفيًا ، وهو يقول فى حزم :

ــ لا يوجد جنى هناك .

ثم أضاف فى لهجة آمرة :

ــ هيا .. سنعود إلى منازلنا .

ساروا جميعًا خلفه فى صمت ، ثم قال (تامر) فى تردّد :

ــ كلّنا نعترف بشجاعتك وزعامتك لـ (الشلة) يا (وائل) ، ولقد ربحت الرهان .

التفت إليه (وائل) ، وسأله فى شرود :

ــ أى رهان ؟

قال (تامر) فى دهشة :

ــ الرهان يا (وائل) .. دراجة (كريم) .. المفروض أن ..

قاطعه (وائل) :

ــ آه .. دراجة (كريم) .. دعك من هذا . فالمراهنات أمر يحرّمه الدين .

غمغم (تامر) :

ــ بالطبع .

ثم تطلّع إلى (وائل) فى حيرة ..

لماذا يبدو له صديقه مختلفا ؟..

لماذا لا يبدو كما عرفه دائما ؟..

كان من الممكن أن تمتدّ تساؤلاته إلى ما لانهاية ، لولا أن بلغ الركب منزل (وائل) ، فقال هذا الأخير فى حسم :

ــ طاب مساؤكم يا رفاق .

ودلف إلى منزله فى سرعة ، دون أن يلقى نظرة واحدة على وجوه رفاقه ، الذين توقّفوا يتطلّعون إليه مبهوتين ، قبل أن يغمغم (كريم) :

ــ ماذا أصابه ؟

قال (تامر) فى حيرة :

ــ إنه يبدو مختلفًا .. أليس كذلك ؟

أجاب (هيثم) فى سخط :

ــ بلى .. إنه الغرور يا رفاق .

لم يناقش أحدهم رأيه ، أو يتصدّى له هذه المرة ، وإنما تابع الجميع مسيرتهم فى صمت ،وفى أعماقهم جميعًا يدوى سؤال واحد ..

ماذا أصابه ؟..

أما (وائل) ، فقد صعد إلى منزله فى صمت ، ولم تكد والدته تستقبله عن باب شقته ، حتى قالت معاتبة ومؤنبة :

ــ لقد تأخرت عن موعد العشاء يا (وائل) .

ــ أجابها فى اقتضاب أدهشتها :

ــ أعتذر عن هذا .

لم تعتد منه أبدًا ذلك الاستسلام السريع ، أو الاعتذار دون سرد كل مبرّراته وأسبابه ، مما جعلها تتطلّع إليه فى حيرة تمتزج بالقلق ،وهى تسأله :

ــ هل أعدّ لك طعام العشاء ؟

أدهشها مرة أخرى ، وهو يقول فى اقتضاب :

ــ كلاّ .. شكرًا لك .

تابعته ببصرها فى مزيد من القلق والحيرة ، وهو يتجه إلى حجرة مكتب والده ، وغمغمت :

ــ ماذا أصابه ؟

والتقطت أذناه غمغمتها ، ولكنه لم يتوقّف ، وإنما دقّ باب حجرة مكتب والده فى رصانة ، وانتظر حتى سمع والده يدعوه إلى الدخول ، فدلف إلى حجرة المكتب ، وأغلق الباب خلفه فى هدوء ، ثم جلس على المقعد المقابلَ لمكتب والده ، الذى ابتسم قائلاً :

ــ مساء الخير يا (وائل) .. هل انتهيت من نزهتك مع أصدقائك ؟

أجابه (وائل) :

ــ نعم يا أبى .

مال والده إلى الأمام ، وهو يسأله :

ـــ هل أنفقت نقودك كلها ؟

هزّ (وائل) رأسه نفيًا ، وهو يجيب :

ـــ لا يا أبى ، ما زلت أملك نقودًا كثيرة .. شكرًا لك .

تراجع والده فى حيرة ، وهو يتطلّع إليه ، فلم يكن من عادة (وائل) أن يجلس معه فى حجرة مكتبه ، دون أن تكون له مطالب ما ، إلا أنه لم يحاول سؤاله عما لديه ، وإنما تظاهر بالانهماك فى القراءة ، تاركًا لابنه حرية اختيار الوقت المناسب ، للإفصاح عما لديه ، حتى سأله (وائل) فى اهتمام :

ـــ أبى .. ألديك هنا كتاب حديث ، عن أجهزة (الترانزستور) ؟

أدهش السؤال والده بالفعل ، إلا أنه لم يبد دهشته هذه ، وإنما أغلق الكتاب الذى يطالعه فى هدوء ، وخلع منظاره الطبى ، وهو يقول :

ـــ عندى بالطبع عدة كتب عن (الترانزستور) ، بحكم تخصّصى ، ولكن هذه الإليكترونيات أصبحت قديمة ، والعالم كله يستخدم الآن دوائر السليكون المطبوعة و ...

سأله (وائل) مقاطعًا :

ـــ ألديك كتاب عن دوائر السليكون هذه ؟

ملأت الحيرة نفس الأب ، وهو يقول :

ـــ بالطبع .

ثم استدرك بسرعة :

ـــ ولكنه كتاب ضخم ، باللغة الانجليزية و ...

قاطعه (وائل) مرة أخرى ؟

ـــ هل يمكننى استعارته ؟

تطلّع إليه والده فى دهشة ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، قائلاً :

ـــ وهل يمكنك قراءة كتاب متخصّص كهذا ، بلغة أجنبية ؟

أسرع (وائل) يجيب :

ـــ إننى أستعيره من أجل والد أحد أصدقائى .

لسبب ما شعر الأب أن ابنه ليس صادقًا ، فى قوله هذا ، إلا أنه لم يشأ الإفصاح عن هذا ، وإنما نهض يحضر الكتاب ، ويناوله لابنه ، وهو يسأله :

ـــ وكم من الوقت يحتاج إليه ؟

التقط (وائل) الكتاب فى لهفة تثير الدهشة ، وهو يجيب :

ـــ يوم واحد يا أبى .. يوم واحد .

وحمل الكتاب إلى الباب فى سرعة ، ثم توقّف وهو يفتح الباب ، والتفت إلى والده ، وقال بابتسامة عريضة :

ـــ شكرًا يا أبى .. شكرًا لك .

بقى الأب جامدًا فى مكانه ، بعد أن أغلق (وائل) باب الحجرة وانصرف ، ثم غمغم فى قلق ، وهو يعيد منظاره إلى عينيه :

ـــ ماذا أصابه ؟

وعربد فى أعماقه قلق خفى ، جعله يتصوّر أن هذا الذى حصل منه على الكتاب ، ليس (وائل) الذى يعرفه ..

إنه يختلف ..

يختلف كثيرًا ..

* * *

لم تفارق الفكرة رأس الأب ، وهو يتقلّب فى فراشه ، فى هذه الليلة ، بهاجمه كوابيس مقلقة ، حتى شعر بيد تمسك كتفه ، فانتفض مستيقظًا ، وهو يهتف :

ـــ ماذا هناك ؟

طالعه وجه زوجته ، يحمل طنًا من القلق ، وهى توقظه قائلة :

ــ استيقظ يا (نبيه) .. إننى أكاد أموت فزعًا .

هبّ جالسًا على طرف فراشه ، وهو يقول متوتّرًا :

ــ لماذا ؟ ماذا حدث ؟

أجابته مرتجفة :

ــ (وائل) يا (نبيه) .. (وائل) لم ينم فى فراشه هذه الليلة .

هتف فى زعر :

ــ لم ينم فى فراشه ؟!.. أين هو إذن ؟.. كم الساعة الآن ؟

أجابته ودموعها تنهمر على وجنتيها :

ــ لست أدرى أين هو ، والساعة لم تبلغ الخامسة والنصف صباحًا بعد .

هتف :

ــ يا إلهى !

وقفز من فراشه ، وأسرع يرتدى ثيابه فى لهفة ، وهو يقول :

ــ أين ذهب ؟.. ما الذى أصابه ؟.. إنها أوّل مرة يفعل فيها هذا ؟

بكت الأم فى حرارة ، وهى تقول :

ــ إنه لا يبدو لى طبيعيًا ، منذ عاد هذه الليلة .

انتهى زوجها من ارتداء ثيابه فى سرعة ، وقال وهو يسرع نحو الباب :

ــ سأبلغ الشرطة .. أخشى أن ..

احتبست الكلمات فى حلقه ، عندما رأى باب الشقة يُفتح فى هدوء ، ويدلف منه (وائل)، ثم يغلق الباب خلفه ، وهو يتطلّع إليهما بعينين خاويتين ، فاندفعت أمه نحوه ، واحتوته فى صدرها ، وهى تهتف :

ــ (وائل) .. أين كنت يا بنى ؟.. أين ذهبت ؟

أما والده ، فقد قال فى عصبية غاضبة :

ـــ كيف غادرت المنزل ، فى منتصف الليل ؟

أجابه (وائل) فى خفوت :

ـــ كان المفتاح بالباب ، فأخذته و...

قاطعه والده فى حدّة :

ـــ لماذا ؟

لم يحر (وائل) جوابًا ، وإنما لاذ بالصمت ، وملامحه لا تشفّ عن شىء ، مما أثار قلق وحيرة والديه ، اللذين تبادلا نظرة منزعجة ، قبل أن تقفز إلى ذهن الوالد فكرة عجيبة ، جعلته يسأل ابنه فى حزم :

ـــ أين الكتاب ؟

رفع (وائل) عينيه إليه ، وسأله فى براءة :

ـــ أى كتاب ؟

قال الوالد فى حدة :

ـــ الكتاب الخاص بدوائر السليكون .. أين هو ؟

صمت (وائل) لحظة ، ثم أجاب :

ـــ لقد أعطيته لصديق .. أقصد لوالد صديق .

سأله والده فى غضب :

ـــ أين ؟

أجابه ابنه الوحيد فى اقتضاب :

ـــ منذ قليل .

ثم اتجه نحو حجرته ، مستطردًا :

ـــ معذرة .. إننى أحتاج إلى النوم بشدة .

ودلف إلى حجرته ، وأغلق بابها خلفه ، تاركًا والديه يتطلّع كل منها إلى الآخر فى ذعر وذهول ، وقد باد لهما أن ابنهما الوحيد قد أصابه مسّ .. مسّ من الجن .

* * *

٣ ـــ الحيرة ..

لم ينجح المهندس (نبيه) ، طوال ذلك النهار ، فى أداء عمله بالتركيز اللازم ؛ لأن عقله لم يتوقّف لحظة عن التفكير فيما أصاب ابنه الوحيد ..

هل فقد الصبى عقله ، أم أصابه انهيار عصبى حاد ؟..

يئس فى النهاية من العثور على جواب شاف ، أو القيام بعمله على نحو جيّد ، فترك ما بيده ، وتراجع فى مقعده ، مطلقًا تنهيدة قوية ، جعلت زميله (دسوقى) يلتفت إليه ، ويسأله مبتسمًا :

ـــ هل أصابك الملل ؟

هزّ (نبيه) رأسه نفيًا ، وقال :

ـــ لا .. إنما هو بعض التوتّر .

نظر صديقه إلى ساعة معصمه ، وقال :

ـــ يمكنك الانصراف ، والاسترخاء بعض الوقت فى منزلك ، فالساعة الآن الثانية والنصف ، ولن يعترض المدير لو أنك ..

قاطعه دخول زميل ثالث لهما ، وهو يهتف بالمرح المشهور به :

ـــ كيف حال الجميع ؟

ثم التفت إلى (نبيه) ، دون أن ينتظر جوابًا من الآخرين ، مستطردًا :

ـــ عجبًا !!.. (نبيه) هنا ؟. كنت أظنك فى إجازة يا رجل .

سأله (نبيه) فى ضجر :

ـــ ولماذا راودك هذا الظن العجيب ؟

أجابه زميله فى حيرة :

ـــ بسبب الكمية الكبيرة من دوائر السليكون ، التى ابتاعها ابنك من

متجر أخى هذا الصباح .

انتفض جسد (نبيه) فى قوة ، وحدّق فى وجه زميله ، الذى تابع بنفس الحيرة :

ــ لقد تصوّرت أنك ستقضى النهار كله فى ترتيبها وتصنيفها حتمًا .

تراجع الرجل فى ذعر ، عندما فوجىء بـ (نبيه) يقفز من خلف مكتبه ، ويمسك ذراعه ، قائلاً فى حدة :

ــ هل تمزح ، أم تتحدّث جادًا يا رجل ؟

توقّف جميع من فى المكتب عن العمل ، وتطلّعوا فى دهشة إلى (نبيه) ، وزميله يجيبه فى خوف :

ــ أقسم لك إننى جاد .. لماذا أمزح فى مثل هذا الأمر ؟

سأله (نبيه) فى شراسة ، زادت من دهشة الجميع :

ــ وكم بلغ ثمن كل دوائر السليكون ، التى ابتاعها (وائل) ؟

أجابه فى ذعر :

ــ ما يقرب من سبعمائة جنيه .. لقد تصوّرت أن ...

لم يتمّ عبارته ؛ لأن (نبيه) تخلّى عنه ، واندفع يعدو خارج المكان تاركًا رفاقه خلفه ، وقد ألجمهم الذهول ، فلاذوا بصمت تام ، قطعه الرجل هاتفًا :

ــ لماذا فعل بى هذا ؟.. هل أصابه الجنون ؟

لم يجبه أحد ..

ولم يكن هناك جواب ..

أما (نبيه) ، فقد غادر الشركة كالصاروخ ، وقفز داخل سيارته ، وانطلق بها فى سرعة ، وعقل يغلى كبركان ثائر .

لماذا ابتاع (وائل) دوائر السليكون ، بكل هذا المبلغ ؟..

ومن أين حصل على المبلغ نفسه ؟..

أوقف سيارته أمام متجر الإليكترونيات ، وقفز منها ، وسأل صاحب المتجر فى توتّر :

ــ صباح الخير يا (فريد) .. هل ابتاع منك (وائل) دوائر سليكون هذا الصباح ؟

أجابه (فريد) ، وهو فى حيرة من توتّره :

ــ نعم .. لقد ابتاع حوالى ..

قاطعه (نبيه) :

ــ وهل نقدك ثمنها ؟

أجابه فى تردد :

ــ بالطبع .. سبعمائة وستة وثلاثون جنيهًا .. ألم ترسله أنت فى طلب هذه الدوائر ؟

مادت الأرض بـ (نبيه) ، حتى لقد خيّل إليه أنه سيهوى أرضًا ، وارتسمت فى عقله علامة استفهام ضخمة ، وهو يستند إلى سيارته ..

لماذا يحدث هذا ؟..

لماذا ؟..

ثم اعتدل بغتة ، وسأل (فريد) :

ــ كيف طلب (وائل) هذه الدوائر ؟.. أعنى هل طلبها شفاهة ، أم أنه كانت مدوّنه فى ورقة مثلاً ؟

أجابه (فريد) فى حيرة :

ــ كانت كلها مدوّنة فى ورقة ..

ثم التفت ملتقطًا ورقة مطوية ، وناولها إلى (نبيه) ، مستطردًا :

ــ هاهى ذى .

اختطف (نبيه) الورقة اختطافًا ، ولم يكد يطالعها حتى اتسعت عيناه فى ذهول ...

كل الدوائر المطلوبة كانت منتقاة بدقة بالغة ..

كلها منتقاة ، كما لو أن خبيرًا بالإليكترونيات قد وضع اللائحة ، وهو يخطّط لصنع آلة رهيبة ..

آلة مجهولة ..

وبأصابع مرتجفة ، وقلب ينبض كمضخة مائية عنيفة ، دسّ (نبيه) الورقة فى جيبه ، وغمغم :

ــ شكرًا يا (فريد) .. شكرًا .

وألقى نفسه داخل سيارته ، وهو يترنّح كالسكير ، وانطلق بها إلى منزله ، وقد تحوّل عقله إلى ورقة بيضاء ، خالية من أية أفكار ، حتى أوقف السيارة أمام منزله ، وصعد إليه فى بطء ، وألقى نفسه فوق أوّل مقعد صادفه ، وهو يسأل زوجته فى صوت أجش مبحوح :

ــ أين (وائل) ؟

أجابته والقلق يعصف بنفسها :

ــ فى حجرته .. لماذا تسأل ؟

سألها :

ــ متى عاد ؟

اقتربت منه ، وجلست على المقعد المجاور له ، ووضعت يدها على كفه ، وهى تسأله :

ــ ماذا حدث يا (نبيه) ؟

فوجئت به يسحب كفه فى حدة ، وهو يكرّر فى خشونة :

ــ متى عاد ؟

تراجعت فى خوف ، وهى تجيب :

ــ منذ ساعتين .. لماذا ؟

هبّ من مقعدة فجأة ، واتجه إلى حجرة ابنه ، ودفع بابها فى عنف ، ورمق ابنه بنظرة نارية ، جعلت (وائل) ينهض من فراشه ، ويقف أمامه فى صمت ، فسأله فى صرامة :

ــ لماذا ابتعت دوائر السليكون ؟

أجابه (وائل) فى هدوء :

ــ لقد طلب منى أحدهم أن ابتاعها من أجله .

سأله فى ثورة :

ـــ ومن أين جئت بثمنها ؟

أجابه بنفس الهدوء :

ـــ هو أعطانى الثمن

صرخ (نبيه) :

ـــ ومن هو هذا ؟

لاذ (وائل) بالصمت لحظات ، ثم أشاح بوجهه ، قائلاً فى خفوت :

ـــ صديق .

أمسك والده ذراعيه فى غضب ، وهو يصرخ به :

ـــ ما اسم هذا الصديق ؟.. ما اسمه ؟

لم ينبس (وائل) بحرف واحد ، وإنما أطبق شفتيه فى قوة ، زادت من ثورة أبيه ، فراح يصرخ :

ـــ أخبرنى من هو ؟.. من هو ؟

تدخلت الأم فى هلع ، وأمسكت ابنها هاتفة :

ـــ اتركه يا (نبيه).. اتركه .

أفلته الأب ، وتراجع فى حدة ، فى حين ضمت الأم ابنها إلى صدرها ، وراحت تربت على ظهره فى حنان مشفق ، على الرغم من ملامحه الجامدة ، التى زادت من قلق الأب ، فخفض صوته ، وهو يحاول أن ينتهج منهجًا جديدًا ، وقال :

ـــ (وائل) .. هل تعرف ما الذى يمكن أن تصنعه هذه الدوائر مجتمعة ؟

مضت لحظة من الصمت ، قبل أن يقول (وائل) :

ـــ لا .

قالها فى هدوء شديد ، وعلى نحو أوحى لـ (نبيه) بصدقه ، فتراجع فى حيرة ، وتطلع إلى ابنه فى قلق ، فى حين ربتت الأم على رأس ابنها ، وقالت فى حنان :

ـــ اذهب إلى فراشك يا (وائل) .. لاريب أنك تحتاج إلى نوم طويل ، بعد ساعات النوم القليلة ، التى لم ترح جسدك الصغير .. أليس كذلك ؟

أومأ برأسه إيجابًا ، واتجه إلى فراشه دون صوت ، ولم يكد يضع رأسه على وسادته ، حتى أغلق عينيه ، وبدا وكأنما راح فى سبات عميق ، فاتجهت الأم إلى (نبيه) ، وهمست فى قلق :

ـــ اتركه ينعم ببعض النوم .. أرجوك .

زفر زوجها زفرة قوية ، ثم أومأ برأسه إيجابًا ، وتبعها إلى الخارج ، وأغلقا الباب خلفهما فى حرص ..

وهنا فتح (وائل) عينيه عن آخرهما ، وبدا شديد الحيوية والنشاط ، على الرغم من ساعات النوم القليلة ، وقفز من الفراش ، وأزاح أحد كتبه جانبًا ، ثم تناول من خلفه علبة متوسطة الحجم ، فتحها فى حرص ، ثم ابتسم فى ارتياح ، وهو يلقى نظرة على دوائر السليكون الدقيقة داخلها ..

واتسعت ابتسامته فى ارتياح ..

وظفر ..

بكت أم (وائل) فى مرارة ، وهى تجلس إلى جوار زوجها ، فى ردهة المنزل ، وراحت تقول فى حزن :

ـــ ماذا أصاب ابننا يا (نبيه) ؟.. ماذا أصاب عقله ؟.. هل أصبح معتوهًا ؟

.. هل جنّ ؟

رنّت زوجها على كتفها ، وهو يقول فى أسى :

ــ اطمئنى يا عزيزتى .. اطمئنى ..

تركت لدموعها العنان ، وهى تقول :

ــ كيف أطمئن يا (نبيه) ؟.. كيف أطمئن وابنى الوحيد يعانى من اختلال عقلى و..

صاح يقاطعها فى صرامة :

ــ لا.. لاتقولى هذا .

ثم أضاف فى حزم :

ــ (وائل) صبى ذكى ، وعقله يفوق عمره ، كما يقول كل أساتذته ، وربما يعانى من إرهاقًا نفسيًا أو عصبيًا ، ولكنه أبدًا لم يفقد عقله .

وهبّ من مقعده ، مستطردًا فى حدة :

ــ أبدًا .

لم يكد ينطق كلمته الأخيرة ، حتى ارتفع رنين جرس الباب بغتة ، فانتفض جسده وجسد زوجته ، وتبادلا نظرة فزعة ، قبل أن يعقد هو حاجبيه ، ويقول فى توتر :

ــ ماذا أصابنا ؟.. إنه جرس الباب فحسب .

قالها واتجه نحو الباب ، وفتحه فى عنف غير مقصود ، جعل الصبى الواقف أمام الباب يتراجع فى ذعر ، قبل أن يسأله (نبيه) :

ــ ماذا تريد يا (تامر) ؟

أربك هذا الأسلوب (تامر) ، فغمغم متلعثمًا :

ــ معذرة يا أستاذ (نبيه) .. إننى .. إننى ..

أدرك (نبيه) مدى ما سبّبه للصبى من فزع ، فربّت على رأسه ، وقال :

ــ أكنت تريد زيارة (وائل) ؟

ازدرد الصبى اليدين لعابه ، وأومأ برأسه إيجابًا ، فقال (نبيه) :

ــ يؤسفنى أنه نائم يا (تامر) ، فهو ليس كما ينبغى ، منذ عاد مساء أمس .

اتسعت عينا (تامر) فى ذعر ، وهو يقول :

ــ يا إلهى !.. كنت أخشى هذا ، ما كان له أن يدخل تلك الـ ..

بتر عبارته بغتة ، عندما أدرك أنه قد تجاوز ما ينبغى له قوله ، إلا أن ما نطق به لم يكن يسمح له بالتراجع ، خاصة وقد أمسك (نبيه) ذراعه فى عنف ، وسأله :

ــ ما كان له أن يدخل ماذا ؟

تطلّع إليه (تامر) فى خوف ، ثم أدار بصره فى المكان فى قلق ، ليطمئن إلى عدم وجود (وائل) ، ثم همس :

ــ سأخبرك يا سيّدى .. سأخبرك كل ما حدث .

وألقى كل ما لديه ..

* * *

٤ ــ لماذا ؟..

استقبل الشيخ (حسن) ابنه المهندس (نبيه) فى ترحـــاب ، وارتسمت على وجهه المهيب ابتسامة أبوية حانية ، وهو يضمّ ابنه إلى صدره ، قائلًا :

ــ أهلًا يا (نبيه) .. مرحبًا ياولدى .

شعر وهو يضمّ جسده ابنه إلى صدره ، أن هذا الجسد يرتجف ، وأن نبضات قلبه سريعة وجلة ؛ فاختلج قلبه بدوره ، وهو يبعد ابنه عن صدره بامتداد ذراعه ، ويتطلّع فى قلق إلى عينيه ووجهه ، اللذين يحملان كل علامات الاضطراب والحزن ، ثم سأله :

ــ هل زوجتك بخير ياولدى ؟.. كيف حال (وائل) ؟

خفض الابن عينيه ، وكأنما يعجز عن التطلّع إلى عينى والده ، وهو يجيب :

ــ زوجتى بخير ياأبى .. إنما جئت لاستشارتك بشأن (وائل) .

سأله الشيخ فى جزع :

ــ ماذا أصابه ؟

تنهّد (نبيه) ، وهو يجيب فى مرارة :

ــ ليتنى أعلم ياأبى .. ليتنى أعلم .

عاد الأب يتطلّع إلى عينى ابنه فى قلق ، ثم سأله :

ــ ماذا حدث ياولدى ؟.. أخبرنى بالله عليك ، فقد أشعلت قلبى خوفًا وقلقًا .

رفع (نبيه) عينيه إلى والده بغتة ، وسأله :

ــ قل لى ياأبى : هل يمكن أن يتصل الإنس بالجن ؟

تراجع الشيخ فى دهشة ، وتطلّع إلى ولده فى ذعر ، وقد انقبض قلبه ؛ لارتباط هذا السؤال بالحديث عن حفيده ، وهتف :

ــ لماذا تسأل ياولدى ؟

كرّر (نبيه) سؤاله ، فى لهجة امتزجت اللهفة فيها بالرجاء ، مما جعل الشيخ يقاوم جزعه وقلقه ، وهو يجيب :

ــ من المؤكّد أن اتصال الإنس بالجن ممكن ياولدى ، ومرجعنا فى هذا جنى (سليمان) ، الذى عرض عليه إحضار عرش (بلقيس) ، وجماعة الجنّ ، التى استمعت إلى القرآن الكريم ، يتلوه البشر ، فآمنوا به ، كما أن زواج الإنس بالجن محرَّم ، ولو لم يكن الاتصال بينهما ممكنًا ، لما كانت هناك حاجة لمثل هذا التحريم .

بدا من شحوب وجه (نبيه) ، أنه كان يتمنى لو جاء الجواب على العكس مما سمعه ، فمال والده نحوه ، وسأله مرة أخرى فى قلق :

ــ أهذا السؤال صلة بـ (وائل) ؟

أخفى (نبيه) وجهه بين كفيه ، وكأنما يحاول منع الدموع من الانهمار من عينيه ، وهو يقول :

ــ نعم ياأبى .. له صلة مباشرة للأسف .

لم يطق الشيخ صبرًا ، بعد هذه العبارة الأخيرة ، فأمسك كتفى ابنه فى قوة ، وسأله وجسده النحيل كله يهتزّ ، انفعالًا :

ـــ ماذا أصاب (وائل) ؟.. ماذا أصاب حفيدى ؟

عجز (نيه) أخيرًا عن منع دموعه ، فتركها تنزلق على وجنتيه ، وهو يجيب :

ـــ سأخبرك ماذا حدث يا أبى .. سأخبرك كل شىء ..

وراح يروى ماحدث ..

* * *

لم يكد قرص القمر الفضى يرتفع فى السماء ، حتى أزاح (وائل) كتابه ، والتقط من خلفه تلك العلبة متوسّطة الحجم ، التى تحوى دوائر السليكون المطبوعة ، وتسلّل مغادرًا المنزل ، ثم سار بخطوات واسعة نحو الفيلا ..

فيلا الجنّى ..

كان يقطع طريقه إليها فى خطوات ثابتة ، شأن أى شخص يُدرك هدفه جيّدًا ، ويحمل العلبة فى يده بعناية وحرص بالغين ، وملامحه جامدة ، لاتحمل أية انفعالات ..

وفجأة سمع صوتًا يهتف به :

ـــ (وائل) .. انتظر .

لم يتوقّف (وائل) ، وإنما واصل طريقه فى حزم ، وكأنما لم يسمع شيئًا ، إلا رفاقه لحقوا به عدوًا ، واستوقفه (تامر) ، وهو يلهث قائلًا :

ـــ ماذا حدث يا (وائل) ؟.. لماذا تتجاهلنا ؟

تطلّع إليهم (وائل) فى هدوء ، وابتسم ابتسامة بدت شديدة الافتعال ، وهو يقول :

ـــ مساء الخير يا رفاق .. كيف حالكم ؟

سألوه فى قلق :

ـــ كيف حالك أنت ؟

هزَّ كتفيه فى لامبالاة ، وهو يقول :

ـــ فى خير حال بالطبع .

أشار (هيثم) إلى العلبة ، التى يحملها (وائل) ، وسأله فى شك :

ـــ ماهذا ؟.. لعبة جديدة ؟

ابتسم (وائل) فى سخرية ، وهو يقول :

ـــ لا.. ليست لعبة جديدة ، أو حتى قديمة .

مدَّ (هيثم) يده نحو العلبة ، وهو يسأل فى فضول :

ـــ ماهى إذن ؟

جاء رد فعل (وائل) عنيفًا ..

أكثر عنفًا مما يتوقّعه أى مخلوق ..

لقد أبعد العلبة عن يد (هيثم) فى عنف ، ودفع هذا الأخير فى صدره ، هاتفًا :

ـــ إياك .

تراجع (هيثم) فى ذعر ، وتراجع رفاقه كلهم فى دهشة ، وحدَّق الجميع فى وجه (وائل) فى حيرة ، قبل أن يهتف (هيثم) فى غضب :

ـــ كيف تجرؤ على دفعى هكذا ؟

استعاد (وائل) هدوءه ، وهو يقول :

ـــ لم أكن أقصد هذا .

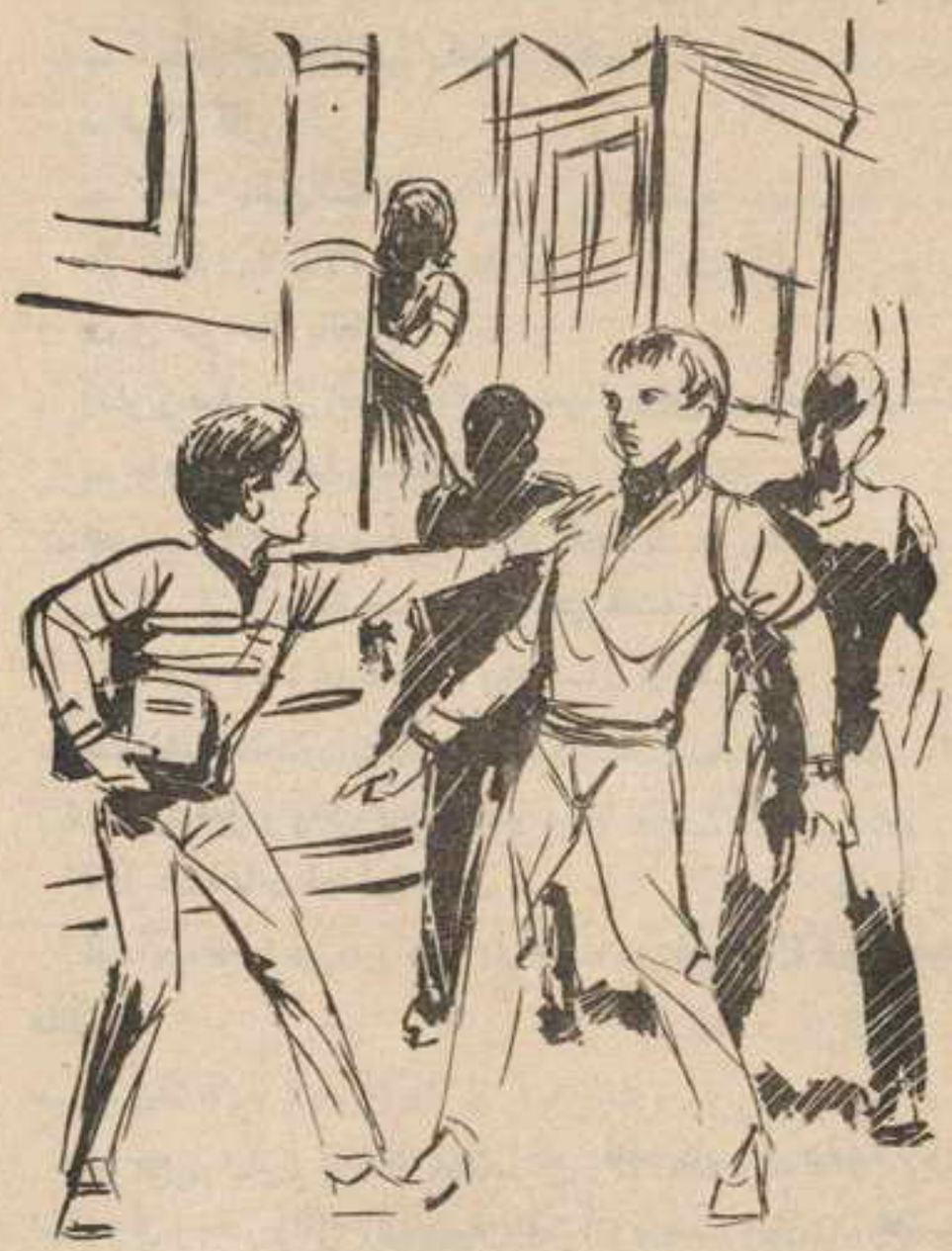

شجع أسلوبه الهادئ (هيثم) على التمادى ، فمدّ يده مرة أخرى نحو العلبة ، وهو يقول :

ــ سننتزعها منك بالقوة ، ونعرف محتوياتها ، و.....

تجمّدت يده فى طريقها ، مع تلك النظرة الشرسة المخيفة ، التى أطلّت من عينى (وائل) ، وهو يقول بصوت رهيب :

ــ ستندم لو حاولت يا (هيثم) .

تراجع الجميع فى رعب حقيقى هذه المرة ، حين أمسك (وائل) العلبة بمزيد من الحرص والتشبّث ، وهو يضيف :

ــ ليس لدى مايكفى من الوقت ، للحديث معكم يا رفاق .. أراكم فيما بعد .

ظلوا صامتين ، حتى ابتعد عنهم بضعة أمتار ، ثم امتلأت نفس (هيثم) بالغضب ، فتقدّم بضع خطوات ، ولوّح بقبضته ، هاتفًا :

ــ لقد أصابك الغرور .. إنك لم تعد تصلح للزعامة .

لوّح (وائل) بيده فى لامبالاة ، دون أن يلتفت إليه ، وقال :

ــ فليكن .. إننى أتنازل عنها لك .

تهلّلت أسارير (هيثم) ، وهتف فى فرح :

ــ حقًا .؟

ثم التفت إلى رفاقه هاتفًا :

ــ هل سمعتم يا رفاق ؟.. إننى الزعيم .. الزعيم الجديد .

لم يكدْ يتمّ عبارته ، حتى اتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يتطلّع إلى شخص يراقبهم خلسه ، من منحنى قريب ..

وكان هذا الشخص هو الأم ..

أم (وائل) ..

* * *

استمع الشيخ (حسن) إلى كل كلمة نطق بها ابنه ، وجسده يرتجف انفعالا ، وعيناه تتسعان فى ذعر ودهشة ، حتى انتهى (نبيه) من روايته . وراح يجفف دموعه ، فشبّك الشيخ أصابع كفيه ، وراح يفكّر فى عمق ، إلى أن سأله ابنه :

ـــ أهو جنّ حقًا يا أبى ؟

تطلّع إليه الشيخ لحظات فى حيرة وصمت ، قبل أن يقول :

ـــ إقرار هذا أمر بالغ الصعوبة ياولدى ، فالأحداث هنا ليست تقليدية أو طبيعية ، فلو قلنا إن (وائل) قد أصابه مسّ من الجنّ ، فلماذا رفض المراهنة على دراجة زميله قائلا : إن هذا أمر حرّمه الدين ؟.. علما بأن الذين يسعون لمسّ البشر من الجن الأشرار ، وليسوا من الأخيار .. ولكن ..

قالها ولاذ بالصمت لحظات ، مما جعل ابنه يهتف به فى لهفة :

ـــ ولكن ماذا يا أبى ؟

لوّح الشيخ بكفه ، مجيبًا :

ـــ الجن ياولدى هم قوم مثلنا ، لهم عالمهم ، وتقاليدهم ، ومجتمعهم ، ومادام فيهم الأشرار والأخيار ، والمؤمنون والكفار ، فمن الممكن أن يكون بينهم جهلة وعلماء .. ومن المحتمل أن أحد علماء الجنّ يستخدم ولدك ؛ لتحقيق مأرب ما .

سأله فى قلق :

ـــ مثل ماذا ؟

هزّ الشيخ رأسه فى حيرة ، وقال :

ـــ المفروض أن ألقى أنا عليك هذا السؤال ، فالدين يأمرنا بسؤال أهل الذكر ، عندما يواجهنا مالا نعلم .. أنت خبير بتلك الدوائر ، التى ابتاعها ابنك ، فما الذى يمكن صنعه بها ؟

عقد (نبيه) حاجبيه فى تفكير ، وقال :

ـــ أى شىء يا أبى .. هذا يتوقّف على الغرض من صنع هذا الشىء .

وراح يدرس الأمر فى عقله بضع لحظات ، قبل أن يستطرد :

ـــ ولكنه شىء شرير حتمًا .. شىء جهنمى ..

* * *

بلغ قلق الأم ذروته ، عندما شاهدت ما فعله ابنها برفاقه ، وهى تراقبه من ناصية الشارع القريب ..

لقد رأته يتسلّل من المنزل ، حاملًا تلك العلبة ، ولكنها لم تحاول منعه ، وإنما تبعته خلسة ، على أمل أن تعرف أين سيذهب بها ، ولماذا ؟..

وعندما شاهدت ما دار بينه وبين رفاقه هوى قلبها بين قدميها ..

إنها لم تعهد ابنها بمثل هذه الشراسة ..

لم تعهده صبيًا يتنازل عن زعامته لرفاقه بهذه البساطة ..

لقد أصابه أمر ما حتمًا ..

أمر جلل ..

وبكل الوجل فى أعماقها راحت تتبعه ، دون أن ينتبه إليها ، ولكنه لم يكد يبلغ هدفه ، حتى كادت تسقط مغشيًا عليها .

لقد رأته يدخل إلى الفيلا فى ثبات ..

تلك الفيلا التى يخشى سكان المدينة مجرّد المرور إلى جوارها ..

رأته يعبر الحديقة فى خطوات هادئة ، ويدفع باب الفيلا الكبير ، الذى يصدر ذلك الصرير المفزع ، ثم يغيب داخل ظلام الفيلا ..

وكان هذا أكثر مما تحتمل ..

لقد أدركت ما أصاب ابنها ، ومن وراء ما حدث ..

إنه الجنّى ..

جنّى الفيلا .

* * *

٥ ــ لقاء فى الظلام ..

« ابننا هناك ؟! .. »

نطقها (نبيه) فى ذعر شديد ، وهو يحدّق فى وجه زوجته ، التى أغرقت دموعها وجنتيها ، وتعلّقت به صائحة :

ــ افعل شيئًا يا (نبيه) .. لاتترك ابننا فى عالم الجن هذا .. افعل شيئا أرجوك .. أتوسّل إليك .

هبّ الشيخ (حسن) من مقعده ، وهو يقول :

ــ نعم ياولدى .. من الضرورى أن نفعل شيئًا .

أجابه (نبيه) فى حزم :

ــ بالتأكيد ياأبى .

ثم أمسك يدَ زوجته ، مستطردًا :

ــ هيا بنا .. سنذهب لإنقاذ ابننا .

لم ينطق كلمة واحدة بعدها ، وهو ينطلق بسيارته إلى الفيلا ، وعقله كله يفكّر فيما ينتظره هناك ..

هل سيواجه جنّيًا ؟..

أم يواجه ابنه ؟..

هذا لو أن ذلك ، الذى يقيم فى منزله منذ أمس ، هو حقًا ابنه ..

ارتجف مع هذا الخاطر العجيب ، وراح قلبه ينتفض فى توتر ، خاصة عندما لاحت له الفيلا المظلمة ، التى يضفى عليها ضوء القمر رهبـة عجيبة ..

وأوقف (نبيه) سيارته إلى جوار الفيلا ، ثم ضغط يد زوجته ، محاولًا بث بعض الطمأنينة فى نفسها ، وهو يقول :

ــ انتظرى هنا .

ثم غادر السيارة ، واتجه نحو بوّابة الفيلا ..

لم يدر فى الواقع كيف جرؤ ابنه على دخول الفيلا ، التى يرتجف هو رعبًا ، وهو يقترب منها ..

ومرة أخرى عاد ذلك الخاطر المخيف يهزّ كيانه ..

هذا لو أنه ابنه ..

جعله هذا الخاطر يستجمع شجاعته ، ويدفع بوّابة الفيلا ، ثم يعبر حديقتها فى خطوات سريعة ، وكأنما يخشى التراجع فى موقفه ، حتى بلغ الباب الكبير ، الذى تركه ابنه مفتوحًا ..

وعبر (نبيه) الباب المفتوح ، ثم توقّف يتطلّع إلى قطع الأثاث القديمة ، التى امتدّت منها الظلال المخيفة ، وازدرد لعابه فى توتر ، قبل أن يتحرّك داخل الفيلا فى حذر ..

لم يشأ استخدام مصباحًا يدويًا ، خشية أن ينتبه ابنه إلى وجوده ، مما جعله يتحسّس طريقه وسط الظلام ، محاولًا دفع عينيه إلى الرؤية ، على الضوء الخافت ، الذى تسمح له النوافذ بالتسلّل إلى الداخل ..

وفجأة سمع صوت ابنه ..

سمعه يأتى من قبو الفيلا ..

كان يبدو وكأنه يتحدّث إلى شخص ما ..

أو شىء ما ..

وبسرعة اتخذ (نبيه) طريقه إلى القبو ، وهبط فى درجات سلمه القديم فى حذر ، وصوت ابنه يبدو أكثر وضوحًا ، حتى لاح له ظلّ ابنه ، وقد انحنى يعمل فى شىء ما ، تحت ضوء القمر ، الذى ينفذ عبر نافذة القبو المكسورة ، ويتحدّث إلى شخص ما ..

والتصق (نبيه) بالحائط ، محـاولًا رؤية مايفعله ابنه ، أو مع من يتحدّث ..

ومع اعتياد عينيه الضـوء الخافت ، تبيّن له أن ابنه يضيف دوائر السليكون إلى جهاز ما ، مسترشدًا بتعليمات تأتيه من شخص قريب ..

ولكن هذا الشخص لم يكن هناك ..

كان القبو خاليًا ، إلا من (وائل) ، وعلى الرغم من هذا كان هناك صوت هادئ ، يرشده إلى كيفية وضع الدوائر ، وإيصالها بالأسلاك ..

وفتح (نبيه) عينيه عن آخرهما ، محـاولًا البحث عـن صاحب الصوت ، وبدأ جسده يرتجف ، وهو يعجز عن رؤية أى شىء آخر ، بخلاف ابنه ، والجهاز الذى يعمل فيه ، ومقعد قديم ، و...

وفجأة انتفض جسده انتفاضة عنيفة ، شملته من قمة رأسه ، وحتى أخمص قدميه ، وكتم بالكاد شهقة قوية ، كادت تنطلق من أعماق صدره ..

لقد رآه ..

رأى ذلك الظلّ نصف الشفاف ، الذى يسير عبر القبو فى هدوء ..

ظلّ بشرى ، أو شبه بشرى ، أشبه بزجاج شفاف حى ، يسير قاطعًا القبو جيئة وذهابًا ، وهو يشرح لابنه ماينبغى عليه فعله ..

إنه الجنىّ ..

جنى الفيلا ..

وقبل أن يمكنه استيعاب الموقف ، وجد نفسه يصرخ :

ــ (وائل) ؟

التفت إليه (وائل) وذلك الظلّ نصف الشفاف ، فى آن واحد ، وحدّقا فى وجهه فى دهشة ..

كانت لذلك الظلّ ملامح بشرية ..

أو شبه بشرية ..

وهتف (وائل) :

ــ أبى .

وهنا استدار الظل نصف الشفاف ، واندفع نحو حائط القبو ..

ثم اخترقه ..

لم يحطّمه ، أو يهدم منه حجرًا واحدًا ..

لقد اخترقه فى نعومة مذهلة ، كما لو كان شعاعًا من الضوء ، يعبر لوحا من زجاج نقى شفاف ..

واختفى خلفه ..

وهنا اتسعتْ عينا (نبيه) فى ذهول تام ..

الآن فقط تأكّد من طبيعة هذا الظلّ ..

إنه جنى ..

جنى حتمًا ..

* * *

ارتسمت ابتسامة ترحاب كبيرة ، على وجه مأمور قسم الشرطة ، وهو ينهض لاستقبال الشيخ (حسن) فى حرارة ، ويصافحه قائلًا :

ــ مرحبًا بك هنا ياشيخ (حسن) .. كم تسعدنى زيارتك لنا .

كان الشيخ (حسن) شخصية معروفة ، فى تلك المدينة الصغيرة ، والكل يحمل له الاحترام والتوقير ، اللذين استحقهما الشيخ بهيبته ووقاره ، وعلمه الغزير ؛ لذا فقد أحسن مأمور القسم وفادته ، وأجلسه إلى جواره ، وهو يسأله فى اهتمام :

ــ هل من خدمة يمكننى تقديمها لك ياشيخ (حسن) ؟

تنحنح الشيخ (حسن) ، وقال :

ــ الواقع أنها خدمة عجيبة .

سأله المأمور باهتمام أكثر :

ــ وما نوعها ؟

تردَّد الشيخ (حسن) لحظة ، ثم قال :

ــ أريد منك أن تقتحم (فيلا الجنّ) ، على رأس قوة من رجالك .

تراجع المأمور برأسه فى دهشة ، وعقد حاجبيه ، وهو يتطلّع إلى الشيخ (حسن) فى تساؤل ، قبل أن يسأله فى حذر :

ــ لماذا ياشيخ (حسن) ؟

تنحنح الشيخ (حسن) ، وهو يقول :

ــ الواقع أنه ..

توقَّف لحظة ، وهو يتساءل عما ينبغى قوله ، ثم أضاف فى سرعة وحسم :

ــ لقد اختطف أحدهم حفيدى (وائل) ، ويحتفظ به فى هذه الفيلا ، مستغلًا خوف أهل المدينة من دخولها ، و...

هتف المأمور فى غضب :

ــ اختطفه ؟!

ثم هبَّ من مقعده ، وهو يستطرد فى صرامة :

ــ اطمئن ياشيخ (حسن) .. لن يمسّ مخلوق حفيدك بسوء ، وأنا مأمور هذا القسم .

واختطف قبعته الرسمية ، ووضعها على رأسه ، وهو يستطرد :

ــ سنقتحم الآن (فيلا الجنى) ، وننقذ حفيدك ، حتى لو حاربنا كل شياطين الإنس والجن ..

واندفع يعدّ حملة الهجوم على الفيلا ..

فيلا الجنى ..

* * *

مضت لحظات من الصمت ، و(نبيه) وابنه (وائل) يتبادلان نظرات صامتة ثقيلة ، قبل أن يغمغم (وائل) :

ــ أبى ؟

حلَّت الكلمة عقدة لسان (نبيه) ، فهتف بكل توتره :

ــ ماذا تفعل هنا يا (وائل) ؟

أجابه (وائل) فى خفوت :

ــ أساعد صديقًا ياأبى .

سأله والده فى ذهول :

ــ أى صديق ؟

أشار الصبى إلى الحائط ، فى الموضع الذى اخترقه الظلّ نصف الشفاف ، وهو يقول :

ــ هذا .

أدار (نبيه) بصره إلى ذلك الموضع فى الحائط ، واستعاد ذهنه ذلك المشهد المخيف ، قبل أن يعود إلى ولده ، هاتفًا :

ــ أى صديق هذا يا (وائل) ؟.. أتصادق جنيًا ؟.. مخلوقا من عالم آخر ، لاتدرى أيريد بك خيرًا أم شرًا ؟

قال (وائل) فى حزم :

ــ إنه ليس جنيًا .

صاح والده :

ــ ومن أدراك ؟

أجابه فى عناد :

ــ أنا أعلم هذا .

صرخ (نبيه) :

ــ خطأ يا (وائل) .. ماتفعله خطأ .. هل تدرى أى جهاز هذا ، الذى يدفعك ذلك الجنى لصنعه ؟.. هل تعلم الغرض منه ؟

أجابه (وائل) فى سرعة :

ــ نعم .. إنه جهاز ارتجاج خاص ، كاف لصنع فجوة بين الأ ...

بتر عبارته بغتة ، وكأنما انتبه إلى أنه يبوح بأكثر مما ينبغى له البوح به . فأطبق شفتيه بسرعة ، ولكنه رأى عينى والده تتسعان فى شرة وهلع ..

جهاز ارتجاج خاص ؟!..

إذن فهذا مايسعى إليه الجنى ..

إنه يسعى لصنع فجوة بين العالمين ..

عالم الإنس وعالم الجن ..

يسعى لفتح ثغرة ، تتيح له السيطرة على عالمنا ..

أو على عالمه ..

وبكل الخوف والذعر ، أدار (نبيه) عينيه إلى ذلك الجهاز ، وقال :

ــ ينبغى تحطيم هذا الجهاز يا (وائل) .. لابد أن نحطّمه ، قبل فوات الأوان .

تراجع (وائل) بحركة حادة ، وحمى الجهاز بجسده ، وهو يقول :

ــ لا ياأبى .. لقد انتهى صنع الجهاز ، وبقى الضغط على زرّ واحد فيه ، ولابد من ضغط هذا الزر .

صاح الأب :

ــ لا يا (وائل) .. حذار أن تفعل .. إنك بهذا تنهى عـالمك .. تحطّمه .

صاح (وائل) فى ثورة ، لم يتوقّعها الأب أبدًا :

ــ لا ياأبى .. لن أسمح لك .. لاشأن لهذا الجهاز بعالمنا .

تراجع (نبيه) فى ذهول ، وقد هاله ماأصاب ابنه ..

لقد مسّه الجنىّ حتمًا ..

ليس هذا ابنه ..

ولكن لماذا يدافع عن هذا الجهاز العجيب ، بكل هذه الشراسة ؟..

لماذا ؟..

ومرة أخرى ، امتلأت نفسه بضرورة تدمير هذا الجهاز ، فصرخ :

ــ لابد من تدميره ..

وفجأة عبر ذلك الظلّ نصف الشفاف الحائط مرة أخرى ، وحال بينه وبين الجهاز ، وهو يرفع يديه أمام وجهه ، صائحًا :

ــ لا .. لاتدمّره .

تراجع (نبيه) فى ذعر ، وهو يحدّق فى ذلك الظل شبه البشرى ، ويشاهد ابنه من خلفه ، يحمى الجهاز بجسده ، كما لو كان يتطلّع إليه عبر نافذة زجاجية ، والظلّ يقول فى حدة :

ــ هذا الجهاز هو الأمل الأخير .. انتظر .. سأشرح لك كل شىء .

وفجأة ارتفعت أبواق سيارات الشرطة ، التى أحاطت بالفيلا ، وسمع الجميع وقع الأقدام ، التى تقتحم المكان ، فهتف (نبيه) فى ظفر :

ــ لم تعد هناك فائدة .. لقد خسرت أيها الجنى .. خسرت معركتك .

بدا الألم على ملامح الظلّ نصف الشفافة ، فى حين هتف (وائل) :

ــ لا .. مستحيل .

ثم استدار بسرعة ، وضغط زر الجهاز ..

وفجأة شعر (نبيه) بأطنان من الألم على أذنيه ، وهو يصرخ :

ــ لايا (وائل) .. لا.

ثم مادت به الأرض ، وسقط ..

سقط فاقد الوعى ، تحت قدمى الظلّ نصف الشفاف ، الذى راح يتحوّل فى بطء إلى جسم مادى ملموس ..

لقد عبر الفجوة ..

الفجوة بين عالمين .

* * *

٦ ــ العودة ..

لم تكد الثغرة بين العالمين تتكوّن ، حتى اندفع منها آلاف من الجن ، أشباه البشر ، وهم يحملون فى أيديهم أسلحة عجيبة ، وراحوا يطلقون نيرانهم نحو رجال الشرطة ، الذين سقطوا صرعى ، أمام تلك الطلقات المرعبة ، فى حين تحوّل الظلّ نصف الشفاف إلى جسد مادى واضح ، التفت إلى (وائل) بابتسامة شيطانية ، وهو يقول فى صوت عميق ، بدا وكأنه قادم من أعماق قبر قديم :

ــ لقد انتهت مهمتك أيها الإنسىّ .

ثم أبرز يده ذات المخالب ، وأمسك بها عنق (وائل) ، و...

« لا.. ليس (وائل) .. »

أطلق (نبيه) هذه الصرخة ، وهو يهبّ من فراشه ، ثم اتسعت عيناه فى دهشة ، وهو يدير هما فيما حوله ، ومن حوله ..

كان يرقد فوق سرير طبى ، داخل حجرة نظيفة ، من حجرات المستشفى العام ، وأمامه عدد من الوجوه المألوفة . يتطلّع إليه فى قلق ..

كان هناك وجه زوجته ، وابنه ، ووالده ، وطبيب المستشفى ، وشخص آخر ، بدا لهُ مألوفًا ..

وهتف (نبيه) ، وهو يخفى وجهه بكفه ، ويعيد رأسه فى بطء إلى الوسادة :

ــ يا إلهى !.. حمدًا لله .. كان هذا مجرّد كابوس .

ربتت زوجته على كفه ، وهى تقول فى حنان :

ــ لقد انتهى كل شىء يا (نبيه) .. حمدًا لله .

وغمغم والده فى ارتياح :

ــ انتهى على خير مايرام .

تذكَّر (نبيه) ماحدث بغتة ، فهتف مرة أخرى :

ــ أين (وائل) ؟

اقترب منه ابنه ، وهو يجيب فى رصانة :

ــ أنا هنا ياأبى .. حمدًا لله على سلامتك .

أمسك (نبيه) وجه ابنه براحتيه ، وهو يقول :

ــ حمدًا لله على سلامتك يا (وائل) .. حمدًا لله على سلامتك أنت .

أتاه صوت رصين يقول :

ــ ابنك هذا ضبى رائع ياسيِّد (نبيه) ، ولك أن تفخر به .

أدار (نبيه) عينيه إلى مصدر الصوت ، وبدا له صاحبه مألوفًا ، وإن لم يذكر أين رأى هذه الملامح من قبل ..

ثم تذكَّرها بغتة ..

إنها ملامحه ..

ملامح الجنى ..

وهبَّ (نبيه) من فراشه ، وهو يهتف :

ــ أنت ؟!

وضع الرجل يده على كتفه فى رفق ، وهو يقول :

ــ إهدأ ياسيِّد (نبيه) .. اهدأ .. سأشرح لك كل شىء .

لم يستطع (نبيه) منع ذلك التوتر العنيف ، الذى سرى فى عروقه كلها ، وهو يقول فى عصبية :

ــ ماذا ستشرح ؟

جلس الرجل على طرف فراشه ، وهو يقول :

ــ دعنا نتعارف أوَّلًا .. اسمى هو (عارف) .. (عارف سلماوى) .. هل يذكرك هذا الاسم بشىء ما ؟

أجابه فى دهشة :

ــ إنه اسم صاحب الفيلا ، ولكن .. ألم تختف منذ عشر سنوات ؟

ابتسم (عارف) ، وقال :

ــ هذه هى القصة ياسيِّد (نبيه) .. أو أن هذه هى البداية .

ثم اعتدل ، مستطردًا :

ــ من المؤكَّد أن أحدًا لم يكن يحبنى فى هذه المدينة ؛ لأننى كنت أصرّ دائمًا على العمل فى عزلة ، فمنذ ورثت عن والدى ثروة ضخمة ، تقدَّر بالملايين ، وابتعت هذه الفيلا هنا ، قرَّرت أن أبذل أقصى جهدى لتحقيق حلم راودنى منذ زمن ، فأنا مثلك ياسيِّد (نبيه) .. خبير فى الاليكترونيات ، ولكننى إلى جوار هذا ، دارس لعلم الفيزياء ، وأحلم منذ زمن طويل بإيجاد وسيلة للانتقال بين الأبعاد المختلفة ، التى أرشدنا إليها (ألبرت اينشتين) ، فى نظريته النسبية الشهيرة ، ومن أجل تحقيق هذا الحلم رحت أعمل ليل نهار ، وأبتاع كل مايمكنه معاونتى من أجهزة ، كنت أحملها إلى قبو الفيلا فى صناديق مغلقة ، وأعمل عليها داخل القبو ، الذى منعت أى مخلوق من دخوله ، حتى ذلك الخادم الكهل ، الذى

ينظف الفيلا كل أسبوع .. ثم جاء ذلك اليوم ، الذى اكتمل فيه جهازى . وتملكتنى سعادة كبيرة أنستنى كل عوامل الحذر ، فقرّرت تجربة الجهاز على الفور ..

صمت لحظة ، وهو يسبح بأفكاره بعيدًا ، وكأنما يستعيد ذكرى تلك الدقائق ، قبل أن يستطرد :

ــ ونجحت التجربة نجاحًا محدودًا ، إذ أن الجهاز لم ينقلنى إلى بُعد آخر ، وإنما ألقى بى فى برزخ بين بعدين ، بحيث لم أعد أنتمى إلى بعدنا هذا ، أو أى بُعد آخر .

تنهّد ، ثم تابع :

ــ وأدركت عندئذ أن الجهاز يحتاج إلى بعض التعديل ، ولكننى لم أكد أحاول لمسه ، حتى هالنى ما وضعت نفسى فيه .. إننى لم أعد قادرًا على لمس الجهاز ، الذى انتقل من بعدنا هذا إلى بعد ثالث ، كان يمكننى وحدى رؤيته ، فى ذلك البرزخ بين البعدين .. وهكذا أصبحت كالشبح ، يمكننى اختراق الحوائط والجدران وقتما أشاء ، ولكننى أعجز عن لمس الجهاز الوحيد ، الذى يمكننى بواسطته العودة إلى عالمى .

صمت لحظات ، وكأنما يترك لـ (نبيه) فرصة استيعاب هذه الفكرة العجيبة ، ثم عاد يروى فى هدوء :

ــ ولقد حاولت مغادرة الفيلا ، ولكننى فوجئت بأن عالمى قد صار محصورًا ما بين جدرانها ، فكلما حاولت الخروج منها أصبح الفراغ كحائط صلب شفاف ، أعجز دومًا عن اختراقه ، ولست أملك حتى الآن تفسيرًا لهذا ، ولا لعدم غوص جسدى فى أرض الفيلا ، مادمت أخترق جدرانها

بهذه البساطة ، ولكن لعلّ التفسيرين ينتميان إلى فكرة واحدة .. المهم أننى كشفت كونى سجينًا داخل ذلك البرزخ ، وداخل جدران الفيلا ، وللأسف لم أكشف هذا إلا بعد انصراف رجال الشرطة ، الذين فتشوا الفيلا بحثًا عنى ، والذين أخفيت نفسى عنهم ، خشية تدخلهم فى عملى ، وهكذا أصبحت وحيدًا ، أنتظر دخول أى مخلوق إلى الفيلا ، حتى يعاوننى على العودة إلى عالمنا .

وابتسم فى أسف ، وهو يستطرد :

ــ وذات ليلة تسلّل لص إلى الفيلا ، سعيًا وراء بعض الغنائم والأسلاب ، وتعجّلت بالظهور أمامه ، ومطالبته بمساعدتى ، ولكن رؤيته لجسدى نصف الشفاف أصابته برعب هائل ، فراح يصرخ ، ويصفنى بأنى جنى ، حتى انطلق يعدو خارج الفيلا ، فاستقبله رجال الشرطة ، وألقوا القبض عليه ، وهو يواصل صراخه ، الذى يخفى صوتى ، وأنا أحاول الاستنجاد بهم ..

تنهّد مرة أخرى ، قبل أن يتابع :

ــ وقضيت عشر سنوات فى هذا المنفى المزدوج ، دون أن يجرؤ مخلوق واحد على الدخول إلى الفيلا ، بعد انتشار شائعة الجنى ، حتى جاء (وائل) .

قالها والتفت إلى (وائل) بابتسامة امتنان ، تضرّج لها وجه الصبى خجلًا ، قبل أن يتابع (عارف) :

ــ والواقع أننى أعترف بشجاعة ابنك وذكائه ، اللذين يفوقان عمره بالتأكيد ، فلم يصرخ عند رؤيتى ، وإنما راح يتطلّع إلىّ فى ذهول ،

وأسرعت أنا أقسم له بأننى لست جنيًا ، ثم شرحت له قصتى كلها .. ولقد أدهشنى استيعابه لها ، وقناعته بها ، فطلبت منه مساعدتى على العودة إلى عالمنا ، وسألته أن يحتفظ بهذا سرًا ، خشية أن يمنعه الآخرون من معاونتى ، أو يتدخلوا لإفساد أملى الأخير ، فأبقى منفيًا حتى آخر عمرى ..

منح (وائل) نظرة امتنان أخرى ، قبل أن يستطرد :

ـــ ولقد فعل (وائل) كل ما طلبته منه ، فأحضر لى كتابًا حديثًا عن دوائر السليكون ، لتعديل جهازى ، الذى صنعته من قبل من الترانزستور ، وراح يصنع الجهاز مسترشدًا بتعليماتى ، وأرشدته أنا إلى ثروتى ، التى أخفيتها قبل تجربة الجهاز ، وراح يبتاع منها دوائر السليكون المطلوبة ، وقطع الجهاز ، حتى صنع الجهاز فى يوم واحد ، وبعدها كان عليه أن يعيدنى إلى عالمى ، عندما وصلت أنت ياسيِّد (نبيه) .

غمغم (نبيه) :

ـــ أنا أعلم الباقى .

ثم سأل (عارف) :

ـــ ولكن لماذا لم ينقلنى جهازك إلى بعد آخر ، عندما أعادك إلى عالمنا ؟.. ولماذا فقدت وعيى وحدى ، دون أن يحدث هذا لـ (وائل) ؟

ابتسم (عارف) ، وقال :

ـــ ومن قال أن هذا لم يحدث ؟

حدَّق فيه (نبيه) فى ذهول ، فاتسعت ابتسامة (عارف) ، وقال :

ـــ المهم أنك قد عدت إلينا أنت و(وائل) .. وأننى أصبحت جزءا من عالمى مرة أخرى ، بعد عشر سنوات كاملة .

هتف (نبيه) :

ـــ لا.. أخبرنى كيف أعدتنا إلى عالمنا ، وما الذى حدث ؟ و...

قاطعه الشيخ (حسن) فى حنان :

ـــ ليس الآن ياولدى .. لقد قال الأطباء أنك تحتاج إلى الراحة ، فأخلد إليها الآن .

غمغم (نبيه) :

ـــ أريد أن أعرف .

ابتسم (عارف) ، وقال :

ـــ ستعرف كل شىء ياسيِّد (نبيه) ، فنحن نشترك فى تخصص واحد .. أليس كذلك ؟

تطلَّع إليه (نبيه) فى حيرة ، إلا أنه لم يلق سؤالًا جديدًا ، وإنما استرخى على فراشه فى صمت ، فى اللحظة التى دلف فيها (تامر) البدين إلى الحجرة ، وتنحنح قائلًا :

ـــ (وائل) .. إحم .. إننى أعتذر ، بالنيابة عن (الشلة) ، ونريدك أن تعود إلى الزعامة ، و...

قاطعه (وائل) فى رزانة :

ـــ ليس الآن يا (تامر) ، فسأبقى إلى جوار أبى بعض الوقت .

ابتسم (نبيه) فى حنان ، وهو يتطلّع إلى ابنه ..

لقد أدرك الآن فقط لماذا بدا له مختلفًا ..

لقد نضج الصبى ، قبل الأوان ..

نضج عندما تحدّى الخوف ..

وتحدّى الأسطورة ..

أسطورة الجنىّ .

* * *

[تمت بحمد الله]

(دراسة)

مجهولو الهويّة

من المؤكّد أن تاريخ الرابع والعشرين من يونيو ، عام ١٩٤٧م ، لم يكن يعنى لرجل الأعمال الأمريكى (كينيث أرنولد) أكثر من ذلك الموعد ، الذى حدّده من قبل ؛ لتوقيع عقد صفقة جديدة من صفقاته العديدة ، فى (واشنطن) ؛ لذا فقد استقلّ طائرته الخاصة ، التى يقودها بنفسه كالمعتاد ، وانطلق بها إلى مطار (واشنطن) ، وعقله يدرس تفاصيل الصفقة وشروطها ، والأرباح الضخمة ، التى ستعود على شركته من توقيعها ..

وبعد أقلّ من ساعة ، وعندما اقترب (كينيث) بطائرته من (مونت رينيار) ، جذب انتباهه تشكيل من تسعة أجسام ، تندفع إلى جواره

بسرعة ضخمة ــ بمقاييس ذلك الزمن ــ وتقوم بمناورات مدروسة غير مألوفة ، ثم ترتفع إلى أعلى ، وتختفى بين السحب ..

واتسعت عينا (كينيث) فى ذهول ؛ فلم تكن تلك الأجسام التسعة تشبه أى جسم طائر رآه من قبل ..

بل لم تكن سرعتها تقترب حتى من أعلى السرعات المعروفة ..

وعندما هبط (كينيث) فى مطار (واشنطن) ، كان ينتظره هناك جيش من الصحفيين ؛ فقد التقطت أجهزة الرادار تلك الأجسام ، وعلم الجميع أنها قد مرقت إلى جواره ، فانتظروا وصفه لها ..

وفى حيرة ، وصف (كينيث) هذه الأجسام ، قائلًا :

ــ إنها تشبه أقراصًا ، ألقتها يد قوية على سطح الماء .. إنها أشبه بأطباق .. أطباق طائرة .

لم يدر ، وهو ينطق هذا المصطلح ، أن العالم كله سيردّده لسنوات ، ستفوق حتى عمر (كينيث أرنولد) نفسه ..

مصطلح (الأطباق الطائرة) ..

والواقع أن (كينيث) لم ينقل إلى العالم ظاهرة جديدة ، وإنما فقط منح هذه الظاهرة اسمًا تتداوله الصحافة ، ويضفى على الظاهرة مزيدًا من الغموض والرهبة ، فلقد بدأت ظاهرة الأجسام الطائرة قبل حادثة (كينيث) بعام تقريبًا ، وبالتحديد فى التاسع من يوليو ، عام ١٩٤٦م ..

فى ذلك الوقت كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ــ ١٩٤٥م) قد وضعت أوزارها ، وألقى الأمريكيون والسوفيت القبض على عشرات من العلماء الألمان ، الذين صنعوا الصاروخين (ف ــ ١) ،

(ف ــ ٢) ، اللذين كادا يقلبان المعايير ، ويحققان النصر لدول المحور ، لولا الهجوم السوفيتى الأمريكى ، وصنع القنبلة الذرية ، عندما ظهرت فى سماء الدول الاسكندنافية عشرات الأجسام الطائرة المجهولة ، التى تشبه فى تكوينها السيجار الضخم ، الذى ينفث اللهب ، على ارتفاع كيلومتر كامل عن سطح الأرض ، مما أثار الذعر والفزع ، وتوالت التقارير عن هذه المشاهدات ، حتى وصف الجيش السويدى هذه الظاهرة بأنها خطيرة للغاية ، وأعلن عجزه عن إيجاد تفسير لها ..

وهنا راح السوفيت والأمريكيون يتبادلون الاتهامات ، وكل منهم يدّعى أن الطرف الآخر قد استغلّ العلماء الألمان لديه ، لصنع أسلحة سرية جديدة ، ثم لم يلبث الأمر أن هدأ قليلًا ، عندما لم تبد تلك الأجساد المجهولة أية نوايا عدوانية ، حتى جاءت حادثة (كينيث أرنولد) لتفجر مرة أخرى ، وتمنحه اسمًا مثيرًا ..

وفجأة راحت المشاهدات تتوالى على نحو مثير ، حتى أن جمهورا ضخمًا من المشاهدين قد رأى تشكيلًا من تلك الأجسام الطائرة ، تقوم بمناورات مدروسة ، عند شلالات (توين) بولاية (أيداهو) ، وفى نفس الليلة أعلن قائد طائرة ركاب ومضيفته الأولى أنهما قد شاهدا طبقين طائرين ، يتابعان الطائرة ..

وبسرعة أعلن المسئولون أن كل هذا مجرّد وهم جماعى ، أو خداع بصرى ، أو .....

ورفض الجمهور تصديق تلك التفسيرات الواهية ، التى حاول المسئولون اقناع الجميع بها ، حتى رجالهم ، لولا ما حدث بعد أربعة أيام فقط ..

فى الثامن من يوليو ، كان أحد الطيارين يختبر طائرة جديدة ، من طراز (اكس — بى — ٨٤) عندما مرق إلى جواره جسم كروى أبيض ، يميل إلى الاصفرار ، ولايشبه أى نوع من الطائرات المعروفة ، ثم اختفى فى الأفق ، منطلقًا بسرعة خرافية — فى ذلك الحين — إذ تجاوز ضعف سرعة الصوت ، فى الوقت الذى لم تكن الطائرات فيه قد بلغت ٩٠٪ من هذه السرعة بعد ..

ولم ير الطيار وحده هذه الظاهرة ، بل شاهدها كل الفنيين فى القاعدة ، وكل زملاء الطيار ، وكتبوا تقريرًا رسميًا يتضمَّن هذا ، وقدموه إلى المسئولين ..

ومرة أخرى تجاهل المسئولون هذا التقرير ..

ولكن الأجسام المجهولة ظلت تظهر ، على الرغم من المسئولين .. طيارو السلاح الجوى يطاردنها ، حتى لقى أحدهم ، وهو الكابتن (توماس مانتيل) مصرعه ، فى يناير عام ١٩٤٨م ، وهو يطارد ماوصفه للقاعدة الأرضية ، بأنه (جسم معدنى متقدم ، وهائل الحجم) ..

وهزّت هذه الحادثة السلاح الجوى فى عنف ، ودفعته إلى تشكيل ما عُرف باسم (عملية ساين) ، التى بدأت عملها فى الثانى والعشرين من يناير ، عام ١٩٤٨م ، لدراسة أمر الأجسام الطائرة المجهولة ..

ثم تكوّنت هيئة علمية ، تختصّ بدراسة هذه الظاهرة ، وعُرفتْ باسم (الكتاب الأزرق) ، ولكن أحد المشرفين على هذه الهيئة ، وهو دكتور (ج. آلان هينيك) ، لم يلبث أن استقال من هذه الهيئة ، معلنًا أن المسئولين يضغطون على (الكتاب الأزرق) ، لدفعه إلى إصدار تقرير يؤكِّد عدم وجود أجسام مجهولة الهوية ، على عكس ماتوحى به التقارير والمشاهدات ..

ولكن هذا الأسلوب لم يقنع الجمهور أبدًا ، خاصة وهو يقرأ فى كل يوم ، عن مشاهدة جديدة ، أو مقابلة مثيرة ، مع تلك الأجسام الطائرة المجهولة الهوية ، كما اصطلح العلماء والدارسين على تسميتها ..

ففى الثانى من نوفمبر ، عام ١٩٥٧م ، كاد ضابط الشرطة النوبتجى ، فى مركز شرطة (ليفلاند) بـ (تكساس) ، واسمه (ا. ج. فولر) ، يصاب بالجنون ، عندما تلقَّى سلسلة من البلاغات الهاتفية ، من أماكن مختلفة من المدينة ، وكلها تتحدَّث عن مشاهدات لأجسام مجهولة الهوية ، وتحمل نفس التفاصيل ..

جسم برتقالى أشبه بسيجار ، يقترب من السيارة ، فيتوقَّف محرِّكها ، وتنطفئ أنوارها ، ثم يبتعد الجسم فى سرعة مذهلة ، تبلغ ألف كيلومتر فى الساعة على الأقل ، وبعدها تعود الحركة لمحرِّك السيارة وتشتعل أنوارها ..

أما لو توقَّف هذا الجسم ، فإن ألوانه تنتقل من البرتقالى إلى الأصفر ، ثم الأبيض ، وبعدها يستعيد ألوانه بترتيب عكسى ، عندما ينطلق ..

وعندما بلغت الساعة تمام الثانية والنصف صباحًا ، كان (فولر) قد تلقَّى خمس عشرة مكالمة هاتفية بنفس المعنى ..

وكان من المستحيل أن تكون كل هذه البلاغات مجرَّد أوهام وخيالات ..

والحديث عن مشاهدات الأطباق الطائرة لاينتهى ، ويحتاج إلى مجلدات كاملة ، لذكر كل واقعة ، وكتابة كل تقرير فى هذا الشأن ، ولكن هناك وقائع خاصة ، لابد من الإشارة إليها ؛ لأنها تحمل من الدلالات مالايمكن التغاضى عنه ، فى مثل هذا الأمر ..

ومن هذه الوقائع واقعة الشرطى (هربرت شيرمر)، من (نبراسكا)، ففى الثالث من ديسمبر ، عام ١٩٦٧م ، شعر (هربرت) بالقلق ، عندما أصيبت حيوانات المنطقة بنوع من الهياج والثورة ، وراحت تعوى وتزوم وتزمجر فى خوف وتوتّر ، فاستقلّ (هربرت) سيارته ، فى الثانية والنصف بعد منتصف الليل ، وانطلق يبحث عن السبب ..

وفجأة وجد (هربرت) نفسه أمام جسم ضخم ، متوقّف على الأرض ، بين الحقول ..

وعندما عاد (هربرت) إلى مركز الشرطة ، فى الثالثة صباحًا ، دوّن فى السجل : « شاهدت طبقًا طائرًا ، عند تقاطع الطريقين السادس والثالث والستين .. صدّق أو لا تصدّق .. » ..

وعندما عاد إلى منزله أصابه صداع رهيب ، وظهرت على رقبته آثار أشبه بضربات السياط ، دون أن يدرك سببا لهذا ..

ثم قامت اللجنة ، المعروفة باسم (كوثدن) ، بدراسة الأمر ، وكشفت وجود فجوة مجهولة فى هذه القصة ، فاستعانت بالمنوّم المغنطيسى المحترف (تورينج وليامز) ، فى الثامن من يونيو عام ١٩٦٨م ، الذى أخضع (هربرت) للتنويم المغنطيسى ؛ لإنعاش ذاكرته ، ومعرفة ما حدث فى هذه الدقائق العشرين ، مابين رؤيته للطبق الطائر ، وعودته إلى المركز ..

وكانت المفاجأة المذهلة ..

ففى غيبوبته المغنطيسية شرح (هربرت) كيف خرجت بعض المخلوقات من الجسم الطائر ، وكيف خدروه بجهاز أشبه بمصباح التصوير ، أحاطه بغاز أخضر ، أصابه بشلل تام ، وبعدها حملت هذه المخلوقات إلى

داخل الجسم المجهول ، حيث سألوه عن محطة توليد الكهرباء ، وخزانات المياه ، ثم أخبروه أنهم من مجرّة قريبة ، ولهم قواعد على كوكب الزهرة ، وبعض الكواكب الأخرى فى مجرّتنا ، وقواعد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى قرار المحيط ، أمام شاطئ (فلوريدا) ، وقاعدة أخرى فى القطب ، ثم راحوا يشرحون له كيف تدور سفينتهم ، وبعدها أعادوه إلى سيارته ، وانطلقوا إلى الفضاء ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من ثقافة (هربرت) المحدودة ، كأى شرطى ريفى ، إلا أن كل المعلومات العلمية ، التى أوردها على لسان هذه المخلوقات ، كانت سليمة تمامًا ، بل إن بعضها لم تتأكّد صحته ، إلا بعد هذه الواقعة بسنوات ..

أما تلك الآثار على رقبته ، فقد كشف العلماء أنها تُطلق إشعاعات نووية ، استغرق الأمر شهرًا ، حتى تلاشت ..

ودخل (هربرت شيرمر) التاريخ ، من أكثر أبوابه غموضًا ..

وعلى الرغم من الدهشة والحيرة ، اللتين انتابك ، وأنت تقرأ واقعة (هربرت شيرمر) ، إلا أنها ليست أعجب الوقائع فى هذا الشأن ، فهناك واقعة لا يمكن أن يجهلها أى دارس لظاهرة الأجسام الطائرة مجهولة الهويّة ..

واقعة (بارنى) و(بيتى هيل) ..

والواقع أن حادثة (بارنى) و(بيتى هيل) ، تعدّ أقوى الحوادث ، فى هذا المجال ، إذ أنها ــ بالإضافة إلى غرابتها ــ منحت العلماء أوّل دليل على وجود تلك الأجسام الطائرة المجهولة الهويّة ، وعلى انتمائها ١١ كائنات عاقلة ، من مجرات أخرى ..

فقبل حادثة (هربرت) بعام واحد تقريبًا ، قضى (بارنى هيل) وزوجته (بيتى) عطلتهما ، عند شلالات (نياجرا) الشهيرة ، عند الحدود الكندية ، وعند عودتهما إلى منزلهما ، فكّر (بارنى) فى سلوك طريق غير مأهول ، فى ساعة متأخرة من الليل ، لتوفير الوقت ، وانطلق فى هذا الطريق لمدة ساعتين ، وفجأة أشارت (بيتى) إلى جسم مضىء ، يحلّق فوقهما ، ولم تكد تذكر هذا ، حتى توقّف محرّك السيارة ، وانطفأت أنوارها ، فى حين هبط الجسم الطائر أمامهما ، وسدّ عليهما الطريق بضخامته ، و...

وبعد ساعتين ، وجد (بارنى) و(بيتى) نفسيهما على بعد خمسة وثلاثين ميلًا ، من الموضع الذى استوقفهما فيه الجسم الطائر ، دون أن يذكرا دقيقة واحدة مما حدث فى أثناء هذا ..

ولم يذكر الزوجان ما أصابهما لأى مخلوق ، ولكنهما عانيا من اضطرابات نفسية ، وأرق شديد ، جعلهما يلجئان إلى دكتور (سيمون) ، للعلاج من هذا القلق النفسى ، وعندما أخضعهما (سيمون) للتنويم المغنطيسى ، كما يفعل مع مرضاه ، كانت المفاجأة ..

لقد تذكّر الزوجان أن مخلوقات هذا الجسم الطائر قد هبطت إليهما ، وصحبتهما إلى سفينتهم ، وهناك تعرّضا لفحوص طبية ومعملية ، مثلما يفعل العلماء بأى كائن غريب ، وبعض هذه الفحوص كانت بالغة التطوّر ، مما يصعب معه أن يصفها من لم يرها بنفسه ، وبعدها اعتذرت تلك المخلوقات لـ (بارنى) و(بيتى) عما فعلوه معهما ، وسألت السيّدة (بارتى) قائد هذه المخلوقات عمن يكون ، فأخبرها أنه وزملاؤه من مجرة أخرى ، ثم قادها إلى خريطة فلكية ، وسألها عمّا إذا كان بإمكانها تعرّف

الأرض على هذه الخريطة ، ففعلت قدرتها على هذا ، وهنا أعادتها تلك المخلوقات مع زوجها إلى سيارتهما ، ونقلوهما إلى الموضع الآخر ، الذى استيقظا فيه ..

وفى أثناء وقوعها تحت تأثير التنويم المغنطيسى ، رسمت (بيتى) تلك الخريطة الفلكية ..

وكان هذا طرف خيط ، التقطته السيّدة (مارجورى فيش) ، التى لم تكن أبدًا من علماء الفلك ، وابتاعت عشرات الخرائط الفلكية ، وصنعت فى منزلها نموذجًا مجسّمًا للنجوم المحيطة بشمسنا ، على مدى ستين سنة ضوئية ، ثم راحت تدرس هذه الخريطة المجسّمة سنوات ..

كانت نظريتها تعتمد على أنه مادام قائد الطبق الطائر قد سأل (بيتى) ، عمّا إذا كانت ترى الشمس على الخريطة ، فهى هناك حتمًا ، ولكن الخريطة مرسومة بالتأكيد من زاوية رؤية مختلفة ، حيث رسمها هؤلاء المجهولون من كوكبهم ، الذى تختلف زاوية الرؤية فيه بلاشك عن كوكبنا ..

ومن هذا المنطلق درست (فيش) الخريطة ، طوال تسع سنوات ، ثم صرخت مثلما صرخ (أرشميدس) قبل الميلاد :

ـــ وجدتها .

وعندما نشرت (مارجورى فيش) خريطتها ، فجّرت قنبلة بين علماء الفلك ، إذ أشارت الخريطة إلى النجم رقم (٨٦١) ، والذى ظهر فى وضوح ، فى خريطة (بيتى هيل) ، على الرغم من أن أحدًا من علماء الفلك لم يكن قد كشف وجود هذا النجم أو موضعه بعد ، عندما رسمت (بيتى) خريطتها ..

فكيف حدَّدت (بيتى) موضع النجم بهذه الدقة ، مالم تكن الحادثة حقيقية بكل تفاصيلها ؟..

وكانت هذه الخريطة هى أوّل دليل على صحة وجود الأجسام الطائرة المجهولة الهوية ، وعلى انتمائها إلى مجرّة أخرى مزدوجة الشمس ، تعرف باسم (زيتا ريتيكولى) .

وعلى الرغم من كل ماقرأته ..

وعلى الرغم من خريطة (بيتى هيل) ، وكل ماحملته من أدلة لاتقبل الشك ، مازال بعض العلماء يرفضون فكرة انتماء تلك الأجسام المجهولة الهوية إلى مخلوقات عاقلة من مجرّات وكواكب أخرى ، ومازال المسئولون يؤكدون أنها مجرّد خداع بصرى ، أو ظواهر طبيعية ..

ومجهولة الهوية ..

* * *

كوكتيل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

قصة العدد

ثمن الصداقة

لم تكد تلك القصة تحمل اسم الصداقة ، حتى قفز ذهنى إليه ..

إلى صديق العمر ، الذى شاركنى أيام الشقاء والعذاب والمرح والشباب ..

إلى رفيق الفكر ونديم العقل ..

لذا كان من الضرورى أن أهديها إليه

إلى الدكتور (محمد حجازى)

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

د. نبيل فاروق

١ ــ صداقة ..

صداقتهما كانت دائما مضربا للأمثال ..

لم يفترقا منذ طفولتهما ، ولم يختلفا أو يتشاجرا ، ولو مرة واحدة ..

منذ حداثتهما ، اعتاد الجميع رؤيتهما معا ..

فى اللهو ، والمرح ، وفى أيام الدراسة والامتحانات ..

حتى عندما يمارس (طارق) رياضة الملاكمة ، التى يعشقها ، كان من الضرورى أن تجد (هشام) هناك ، يتابع المباراة فى قلق ، على الرغم من بنيته الضعيفة ، وعدم ميله للرياضات العنيفة ، وكثيرا مايعتريه الشحوب ، إذا ما أصيب (طارق) بلكمة ، أو كاد يخسر المباراة ..

وبالمقابل كنت تجد (طارق) دائما ، فى كل الحفلات الموسيقية ، التى تظهر فيها موهبة (هشام) ، بالعزف على أصابع البيانو ، وكانت يداه تلتهبان بالتصفيق ، كلما انتهى (هشام) من عزف إحدى مقطوعاته ، وهو الذى لايميل أبدا إلى الموسيقى ..

كانا يختلفان فى كثير من الميول والاهتمامات ، إلا أن هذا لم يقف أبدا كحاجز بين صداقتهما الفريدة ..

وعندما نالا معا شهادة الثانوية العامة ، اتجه (طارق) إلى الكلية الحربية ، التى قبلته بين صفوفها على الفور ، بجسده القوى المتين البنيان ، وتاريخه الرياضى المشرّف ، فى حين قدّم (هشام) أوراقه إلى معهد الموسيقى ، وخطا إليه بجسده النحيل ، ومشاعره الرقيقة ، ليثبت هناك تفوّقه ، وينمّى موهبته فى هذا المجال ..

وفى كل إجازة يحصل عليها (طارق) ، كانا يلتقيان ، ويقضيان معا جل وقتهما ، فى حديث لاينقطع ، وكأنما لايشبع أحدهما من لقاء الآخر أبدا ..

كانت صداقة نادرة ، وضعت منذ بدايتها ميثاقا غير مكتوب ، يقول إن (طارق) هو صاحب القوة ، الذى يذود عن (هشام) أى عدوان من أقرانهما ، ويحميه من أى شخص يحاول استغلال ضعفه ..

لم يناقشا هذا الأمر أبدا ، أو حتى يشير أحدهما إليه ، ولكنه ظلّ بينهما كقانون يحترمه الآخرون ، ويتحاشون النيل منه ..

ثم تخرّج الاثنان ، وصار (طارق) ضابطا برتبة ملازم ثان ، فى القوات الخاصة المصرية ، فى حين حصل (هشام) على وظيفة معيد بمعهد الموسيقى ، وعندما التقيا بعدها هتف (طارق) فى مرح :

ــ أهلا بعبقرى الموسيقى الجديد .. ألف مبروك للمعهد ، على عملك فيه .

ضحك (هشام) ، وهو يقول :

ــ وماشأن قيادة الجيش بـ (بيتهوفن) (مصر) ؟

عقد (طارق) حاجبيه ، وقال :

ــ من ؟!

ثم قهقه ضاحكا ، وهو يقول :

ــ ياللأسماء العجيبة ، التى تستخدمونها يارجال الموسيقى .. اسمع .. مارأيك بالانضمام إلى فرقة موسيقى الجيش ؟

لوّح (هشام) بيده ، قائلا :

ــ لا .. لاشأن لى بالجيش .

أشار إليه (طارق) ، قائلًا :

ــ سيكون لك به شأن حتمًا ياصديقى ، فأنت مثل أى شاب مصرى ، ستخضع للتجنيد الإجبارى .

هزّ (هشام) كتفيه ، وقال :

ــ من يدرى ؟.. ربما رفضونى لضعف بنيتى .

ضحك (طارق) ، وقال :

ــ نعم .. من يدرى .

ولكنهم لم يرفضوه ..

لقد خضع (هشام) للتجنيد الإجبارى ، وصار جنديًا فى جيش (مصر) ..

وعلى الرغم من أنه و(طارق) قد صارا ينتميان إلى جهة واحدة ، إلا أنهما لم يعودا يلتقيان كالسابق ..

كانت لقاءاتهما نادرة وقليلة ، و(طارق) يعمل على تدريب واحدة من فرق القوات الخاصة ، فى حين التحق (هشام) بعمل إدارى فى وحدة من وحدات الجيش ، فى قلب (سيناء) ..

وذات يوم ، كان (هشام) منهمكًا فى عمله ، عندما سمع صوتًا مرحًا ، يقول :

ــ ألا تؤدى التحية لمن هم أعلى منك رتبة ، أيها الجندى ؟

رفع (هشام) عينيه إلى مصدر الصوت ، وقفز من مقعده ، هاتفًا فى سعادة :

ــ (طارق) ؟!

أشار (طارق) إلى كتفه ، وهو يقول فى مرح :

ــ الملازم أوّل (طارق) يافتى .. ألا ترى تلك النجمة الثانية ، التى تُثقل كاهلى ؟

عانقه (هشام) فى سعادة ، وهو يهتف :

ــ مبارك ياصديقى .. مبارك .

ثم تطلّع إليه فى ارتياح ، مستطردًا :

ــ كم تُسعدنى رؤيتك ياصديقى العزيز .. من الواضح أن تدريبات القوات الخاصة تزيدك قوة ، فقوامك أكثر اعتدالًا ، وعضلاتك واضحة ، و...

قاطعه (طارق) :

ــ المهم أننى رأيتك .

سأله (هشام) فى اهتمام :

ــ حقًا .. نسيت سؤالك عن هذا .. أهى إجازة أم ....؟

قاطعه (طارق) بسرعة :

ــ شىء من هذا القبيل .

صمت لحظة ، ثم بدا وكأنه لايحتمل كتمان أحد أسراره عن صديق عمره ، فتابع فى خفوت :

ــ ستنتقل كتيبتى غدًا إلى منطقة الممرات .. إلى ممر (متلا) بالتحديد .

سأله (هشام) ، فى خفوت مماثل

ــ أهى تحركات عسكرية ؟

هزّ (طارق) كتفيه ، وقال :

ــ ألا تسمع خطب الرئيس (جمال عبد الناصر) ، وتهديداته بإلقاء (إسرائيل) فى البحر ؟.. انتقالنا هو جزء من هذه التهديدات ياصديقى .. نوع من إبراز القوة والعضلات .

سأله (هشام) :

ــ وهل سينتهى هذا بنا إلى الحرب ؟

حرَّك (طارق) رأسه نفيًا ، وقال :

ــ لا.. لاأظن هذا .. أظنها نوع من الحرب الإعلامية ، لاأكثر ولاأقلّ .

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ، وهو يمسك كتفى صديق عمره ، مستطردًا : •

ــ المهم أننا قد التقينا ياصديقى . هذا هو كل مايعنينى الآن .

وإلى جوارهما كانت نتيجة الحائط تشير إلى الثالث من يونيو ، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ..

قبل يومين من حرب يونيو ..

من الكارثة ..

* * *

٢ ــ النكسة ..

لاأحد ، حتى ممن عاصروا الأمر ، يمكنه أن ينقل صورة حقيقية ، لحجم وفداحة الكارثة ، التى أصابت جيش (مصر) ، فى الخامس من يونيو ، عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين ..

لاأحد يمكنه أن يصف كل الأهوال والمصائب ، التى حطَّمت جيش دولة كاملة ، فى أيام معدودة ..

سلاح الطيران كله تحطَّم ، قبل أن تصعد طائرة واحدة منه إلى السماء ..

خيرة شباب (مصر) لقى حتفه ، قبل أن يطلق رصاصة واحدة ..

القيادة تخبَّطت ، والأوامر تضاربت ، والذعر ساد الصفوف ..

ثم صدر قرار الانسحاب ..

حتى هذا القرار ، لم يصدر بعد دراسة أو تخطيط ..

كان أعجب قرار انسحاب ، صدر عبر التاريخ ..

وكان على كل شخص أن ينسحب على مسئوليته ..

واستدار الجيش المحطَّم ، يركض وسط رمال الصحراء ، فى اتجاه الغرب ، سعيًا وراء الفرار ، وفوقه تحوم طائرات العدو ، ورصاصاتها تحصد الشباب والرجال بلا رحمة ..

ووسط هذه الجموع الفارة ، كان (هشام) ..

بجسده النحيل راح يجرّ قدميه فوق رمال سيناء ، والشمس تلهب رأسه ، والحزن يملأ قلبه ..

وحتى فى هذه الظروف كان يفكّر فى (طارق) ..

لم يدر ماذا أصابه ، ولا كيف هو الآن ..

وكان يشعر بالقلق من أجله ..

وعندما عجزت قدماه عن حمله ، انتقى ظلّ تبة رملية مرتفعة ، وألقى جسده فيه ، وراح يلهث فى قوة ، حتى استلقى أحد رفاقه إلى جواره ، وهتف فى مرارة :

ــ ماذا يحدث لنا ؟.. لماذا لم نلقيهم فى البحر ، كما قال القادة ؟

تمتم (هشام) فى تهالك :

ــ دع القادة يقولون مايحلو لهم .

صاح زميله فى سخط :

ــ لماذا فعلوا بنا هذا ؟.. لماذا ؟

لم يجبه (هشام) ..

بل لم يحاول أن يفعل ..

لقد ترك جسده المكدود يتهالك ويتداعى ، وتجاهل كل الخطر المحيط به من كل جانب ، واستسلم لنوم عميق ..

وفجأة رأى (طارق) أمامه ..

رآه مصابًا ، يحيط ساقه بضمادة ملوّثة بالدماء ، ويُخفى جسده بين صخرتين عاليتين ، وهو يناديه ..

نعم .. يناديه ..

لقد سمع صوت صديقه فى وضوح ، وهو يهتف باسمه ، فى لهجة من يستنجد به ..

وهنا هبّ من نومه ، يهتف :

ــ (طارق) .

انتفض زميله ، وقال فى عصبية :

ــ (طارق) من ؟.. أتنقصنا كوابيسك أيضا ؟... ألا يكفينا ذلك الكابوس ، الذى نحيا كل ثانية منه ، ونجهل ما إذا كنا سنستيقظ على قيد الحياة ، أم فى العالم الآخر .

تجاهله (هشام) ، وهو ينهض حاملا زمزمية ماء صغيرة ، وقال فى حزم :

ــ (طارق) مصاب هناك .

تطلّع إليه زميله فى دهشة ، وقال :

ــ هناك ؟

أجابه (هشام) ، وهو يهمّ بالسير شرقًا :

ــ نعم .. عند الممرات .. عند ممر (متلا) .. إنه يحتاج إلىّ .

خيّل لزميله أن الشاب لم يحتمل كل هذه الضغوط ، ففقد عقله من شدة الخوف ، مما جعله يمسك به ، قائلا :

ــ إلى أين ؟.. هل جننت ؟.. كل الناس تهرب غربًا ، فكيف تتجه أنت شرقًا .. إنك كمن يلقى نفسه بين فكى ذئب جائع .

دفع (هشام) يده ، وهو يقول :

ــ لايمكننى أن أترك صديقى هناك .

صاح به زميله :

ــ ألا تشعر بالخوف ؟

ارتجف جسد (هشام) ، وهو يقول :

ــ بل أشعر بالرعب .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حسم :

ــ ولكننى لاأملك الخيار ..

وارتفع رأسه فى اعتداد ، وهو يستطرد :

ــ إنه صديقى .

وانطلق نحو الشرق ..

* * *

لم تكن الرحلة إلى الشرق هيّنة ، لو أن تلك المسيرة الشاقة تحتمل اسم (رحلة) ، فلقد التقى (هشام) فى طريقه بعشرات من رجال الجيش المصرى ، الذين يشقّون طريقهم إلى الغرب ، وكلهم حاولوا إثناءه عن فكرته ، بل لقد حاول بعضهم حمله بالقوة إلى الغرب ، إلا أنه قاوم كل هذا فى شراسة ، لاتتفق مع نحوله وضعفه ، حتى اضطروا إلى تركه وشأنه ..

حتى غابت الشمس فى الأفق ..

ومع مغيبها ، ألقى (هشام) جسده على الرمال ، وراح يلهث ..

لن يتراجع أبدا ، بعد أن سمع نداء صديقه ..

لن يتراجع مهما حدث ..

إنه واثق من أن صديق عمره هناك .. حيث رآه فى حلمه ..

إنها ليست أوّل مرة يحدث فيها ..

إنه يذكر مرة ، عندما كان صبيين ..

أيامها هاجمه عدد من الصبية ، وأرادوا اختطاف آلة موسيقية صغيرة ، كان قد ادخر مصروفه اليومى لشهرين كاملين ، حتى أمكنه شراؤها ..

كانوا يفوقونه حجمًا وقوة ..

ولكنه هتف ينادى صديقه (طارق) ..

لم تنفرج شفتاه عن هذا الهتاف ، ولكنه أطلقه من أعماقه ، وهو يعدو محاولا الفرار ..

ثم ظهر (طارق) فجأة عند الناصية ..

وهاجم الصبية ..

واضطرّهم إلى الفرار ..

يومها سأله عمّا أتى به ، فأخبره (طارق) أنه كان نائمًا ، وسمعه يناديه ، فهبّ من فراشه ، وأسرع إليه ..

وأنقذه ..

كان دائمًا ينقذه ويذود عنه ..

والآن حان دوره ..

سينقذ صديق عمره ، و...

وفجأة التصقت فوهة باردة بجبهته ، وسمع صوتًا ساخرًا ، يقول بعربية لها لكنة شرقية :

ــ هل أمكنك النوم ، وسط كل هذه الأحداث ، أيها المصرى ؟

وعندما فتح عينيه ، كانت فوهة مدفع آلى مصوّبة إلى جبهته ..

إلى منتصفها تمامًا ..

* * *

تجمّد (هشام) فى موضعه تمامًا ، وهو يتطلّع إلى فوهة المدفع الآلى ، ومن خلفه وجه الجندى الإسرائيلى ، الذى تابع بنفس السخرية :

ــ هيا أيها المصرى .. انهض .

وجد (هشام) صعوبة فى أن ينهض واقفًا ، وفوجئ بالجندى يُلقى إليه معولا ، وهو يقول :

ــ خذ .. احفر .

أمسك (هشام) المعول فى حيرة ، وهو يسأله :

ــ أحفر ماذا ؟

ابتسم الجندى فى سخرية ، وهو يقول :

ــ حفرة أنيقة مستطيلة ، فى حجم رجل مثلك .

ثم قهقه ضاحكًا ، وأضاف :

ــ لقد سئمنا جمع الأسرى ، واتفقنا على حل مثالى .

وأطلّت من عينيه نظرة شرسة مباغتة ، وهو يستطرد :

ــ هيا أيها المصرى .. ستحفر قبرك بيديك .

ارتجف (هشام) ، عندما سمع هذا التعليق الأخير ، وانقبضت أصابعه على ذراع المعول ، وقفز ذهنه إلى الفكرة المخيفة ..

فكرة أن يُدفن حيًا ..

وأن يترك (طارق) ..

وبسرعة راح يفكّر فى وسيلة للفرار من هذا الجندى ..

ولكن كيف ؟..

إنه أضعف من أن يهاجم جنديًا محترفًا ، يصوّب إليه مدفعًا آليًا ، متحفزًا للانطلاق بلا رحمة ..

وصرخ فيه الجندى :

ــ احفر أيها الجندى ..

لم يكد يتمّ عبارته حتى لاحت أضواء كاشفة من بعيد ، والتفت إليها الجندى ، وهو يقول فى سخرية :

ــ لا تجعل الأمر يخدعك أيها المصرى ، إنها ليست واحدة من سياراتكم حتمًا ، فلم تعد لكم سيطرة على ...

قبل أن يتمّ الجندى عبارته ، فعل (هشام) ما لم يكن يتصوّر أن يفعله أبدًا ..

رفع المعول ، وهوى بسطحه على جانب وجه الجندى ، بكل ما يملك من قوّة ..

وسقط الجندى أرضًا ، وصرخ :

ــ أذنى .. لقد تحطّمت أذنى أيها المصرى .. لقد ..

ولكن (هشام) هوى بمعوله مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ..

ثم ألقى المعول من يده ، وانطلق يركض فوق الرمال ..

لم يدر كيف حصل على كل هذه القوة ، ولا كيف أمكنه أن يعدو بهذه السرعة ، بعد أن تصوّر أن جسده قد استنفد كل طاقاته ..

ولم يدر حتى كم من الوقت ظلّ يعدو ، إلا أن أنفاسه فى النهاية لم تعد تحتمل ، فسقط أرضًا ، وراح يلهث فى قوّة ، كما لم يفعل من قبل ..

ومضى وقت طويل ، قبل أن تهدأ أنفاسه وتنتظم ، ويتراخى جسده وأعصابه المشدودة ..

ثم تراخى جفناه ..

تراخيًا طلبًا للنوم والراحة ..

ولكن هيهات ..

لقد تناهى إلى مسامعه بغتة هدير محركات تقترب ، فانتبهت حواسه كلها ، وأسرع يحتمى بتبة قريبة ، والهدير يعلو ويعلو ويعلو ..

ثم أصبحت هذه المحركات على قيد خطوات منه ، وارتفع هديرها قويًا ، وغمرت الأضواء المكان ، ولكنها ألقت مزيدًا من الظلال ، على الجانب الذى يختفى فيه (هشام) ، فغمغم هذا الأخير فى خوف :

ــ لا ريب أنها دبابات ، أو...

وفجأة أدرك أنه على حق ، ولكنه أدرك هذا على نحو مرعب ..

لقد ارتفعت أمامه بغتة مقدّمة دبابة هائلة ، ارتفع جنزيراها على جانبيه ، ثم مالا لتعبر الدبابة تلك التبة ، التى يختفى خلفها ..

لتعبر فوقه ..

* * *

٣ ــ الطريق ..

لم ير (هشام) فى حياته كلها ، أو حتى فى أحلامه ، مشهدًا أكثر إثارة للرعب ، من هذا المشهد ..

دبابة هائلة تهوى فوق رأسه ..

ولقد أطلق شهقة رعب ، أخفاها هدير محرّك الدبابة ، التى مالت باتجاهه ، وضربت الرمال بجنزيريها فى عنف ..

ولوهلة ، تصوّر أن الدبابة قد سحقته بثقلها ، وهدير محرّكها يصمّ أذنيه ، إلا أنه انتبه فجأة إلى أن العمر مازال ممتدًا به ، ولم يُكتب له الموت بعد ؛ فقد هبط جنزيرا الدّبابة على جانبيه ، وواصلت الآلة العملاقة طريقها ، دون أن يدرى طاقمها أنه قد ترك خلفه شابًا مصريًا نحيلًا ، شاء له القدر أن يهزم الموت ، تحت دبابة هائلة ..

وتجمّد (هشام) فى مكانه ، ورتل الدبابات يمرّ على جانبيه ، دون أن ينتبه إليه إسرائيلى واحد ..

وابتعدت الدبابات ، ولكنّ (هشام) لم ينبس ببنت شفه ، وإنما ظلّ يرتعد فى موضعه ، حتى ابتعد صوت الدبابات ، وتلاشى فى الأفق ، فتمتم بصوت ارتجفت حروفه ، حتى صار من العسير تبيّن معناها :

ــ يبدو أن لحظة انتقالك إلى العالم الآخر لم تحن بعد يا (هشام) .

أراد أن يواصل طريقه نحو الشرق ، إلا أن قدميه عجزتا عن حمله ، فبقى راقدًا فى مكانه ، وحاول بأقصى جهده السيطرة على أعصابه ..

وفجأة أشرقت الشمس ..

وكلمة (فجأة) هنا ، تنطبق على شعور (هشام) فقط ..

أو على مايذكره ..

فقد أراد أن يسيطر على أعصابه ، ولكن أعصابه هذه خانتة ، وأسقطته فاقد الوعى ، من شدة الإرهاق والتعب ، فلم يستعد وعيه إلا والشمس تبرز فى الأفق ..

ولم يكد أوّل خيط من الضوء يسقط على وجهه ، حتى انتفض ، وفتح عينيه ، وهبّ جالسًا فى ذعر ، وهو يهتف :

ــ يا إلهى !!.. كيف استسلمت للنوم هكذا ؟.. كيف تركت (طارق) هناك ، يعانى الألم والجوع ؟

اعتدل ينفض الرمال عن زيه المتهالك ، ثم حمل زمزميته ، وفتح غطاءها ، ولم يكد يرفعها إلى شفتيه حتى توقّف بغتة ، وتطلّع إلى كمية الماء الضئيلة داخلها ، وغمغم :

ــ سيحتاج (طارق) إلى الماء حتمًا .

أعاد غطاء الزمزمية إلى موضعه ، وثبتها إلى حزامه ، ثم ملأ صدره بالهواء ، وقال فى حزم :

ــ على بركة الله .

ومضى يواصل طريقه نحو الشرق ..

وعلى الرغم من جسده الضعيف ، كانت عزيمته قادرة على شقّ الصحراء ..

وصداقته قادرة على تحطيم المستحيل ..

إلا أنه ، وعندما أصبحت الشمس فى كبد السماء ، كان يترنّح كالسكير ، ويجرّ قدميه جرًّا ..

كان يحتاج إلى قطرة ماء ، يروى بها ظمأه ، إلا أنه بخل بها على نفسه ، خشية أن يحتاجها صديق عمره ..

وسقط (هشام) على ركبتيه ..

لم يعد يستطيع المضى خطوة واحدة ..

وفى أعماقه ، راحت نفسه تهتف :

ــ لا تستسلم .. انهض .. انهض من أجل (طارق) .. انهض .

تمتم فى إعياء :

ــ نعم .. من أجل (طارق) .

بذل أقصى طاقته ، حتى وقف على قدميه ، ورفع بصره إلى الشرق ..

ها هى ذى الممرات تبدو من بعيد ..

ها هو ذا الهدف يتضح ..

أم أن هذا مجرَّد سراب ؟.

زاغت عيناه ، وتساقطت عليهما قطرات العرق ، فبدت الرؤية أمامه مهتزَّة مموَّجة ، وخيَّل إليه أن طائرًا ضخمًا يتجه إليه ، إلا أنه لم يلبث أن سمع

هدير محرِّك هذا الطائر الضخم ، فمدّ أصابعه يمسح حبات العرق عن عينيه ، وهنا لاح له الطائر على حقيقته ..

لاح على هيئة هليوكوبتر حربية صغيرة ، تحمل على جانبها نجمة سداسية زرقاء ..

نجمة إسرائيلية ..

* * *

لم يكد الإسرائيليان يلمحان (هشام) ، فى زى جندى مصرى ، حتى ارتسمت على شفتيهما ابتسامة ساخرة ، وأشار أحدهما للآخر بالهبوط ، وإثارة رعب هذا المصرى قليلًا ، قبل التقاطه كأسير ..

كانا قد اعتادا العبث على هذا النحو ، منذ فقد الجيش المصرى سلاحه الجوى ، وتبعثر جنوده فى الصحراء ، بأمر انسحاب غير مدروس ..

كل مايختلف فى رأيهما ، فى حالة (هشام) ، هو موضعه ، فالمفروض ــ حسب علمهما ــ أن هذه المنطقة قد خلت تمامًا من المصريين ..

ولكن الجنديين لم يتوقَّفا طويلًا عند هذه النقطة ، بل تجاوزاها فى سرعة ، وهبطا ليثيرا خوف (هشام) ، وأطلقا رصاصات الهليوكوبتر حوله ..

ولكن (هشام) لم يتحرَّك ..

لم يعد قادرًا على أن يفعل ..

لقد استنفر طاقته كلها من أجل (طارق) ، ولكنه يعجز عن بذل حركة واحدة ، من أجل نفسه ..

وسقط (هشام) مرة أخرى على ركبتيه ..

وانهمرت قطرة دمع كبيرة من عينيه ..

لم يبك لخوفه من هؤلاء الاسرائيليين ، وإنما بكى ؛ لأن التعب قد بلغ منه مبلغه ، وأجبره على السقوط أمامهما ، ولأن مصرعه سيترك صديق عمره بلا نصير أو صديق ..

ومرة أخرى ، أجبر كل عضلاته على النهوض ، حتى لايخر على ركبتيه أمام زوج من الأحذية الإسرائيلية ..

وخيّل إليه أنه قد فقد كل مشاعره ..

تحوّل إلى آلة ، كل عملها هو أن تقف صامدة ، حتى والرصاصات تنهمر حولها ..

وهتف أحد الإسرائيليين بدهشة :

ــ عجبًا !!.. إنه لايبالى بالرصاصات

عقد الثانى حاجبيه ، وهو يقول فى حدة :

ــ إنه إما أشجع رجل عرفته ، فى حياتى كلها ، أو رجل فقد عقله من شدة الخوف

ابتسم زميله ، وقال :

ــ هيا نهبط لانتشاله ، وسنجد لديه الجواب حتما .

هبطت الهليوكوبتر على قيد أمتار من (هشام) ، الذى لم يستطع إلا إغماض عينيه ، تفاديا لسحابة الرمال ، التى أثارتها مروحة الهليوكوبتر .

حتى شعر بفوهة مدفع آلى تضرب جنبه ، وسمع صوتا غليظا يقول :

ــ ارفع يديك أيها المصرى .. أنت أسيرنا .

غمغم (هشام) :

ــ يمكنك أسرى كما تشاء ، ولكننى عاجز حتى عن رفع يدى .

دفعه الجندى بمدفعه فى ظهره ، وقال :

ــ تقدّم إذن نحو الهليوكوبتر .

كادت تلك الدفعة تسقطه على وجهه ، لولا كرامته ، التى تشبّث بها ، فعاونته على دفع قدميه إلى الأمام ، نحو الهليوكوبتر ، لم يكد يبلغها حتى

أمسك قائمها ، خشية السقوط ، وألقى جسده داخلها ، فغمغم قائدها ساخرًا :

ــ ماذا أصابك أيها المصرى ؟.. هل قطعت (سيناء) كلها سيرًا على قدميك ؟

غمغم (هشام) :

ــ شىء من هذا القبيل .

قفز الإسرائيلى الثانى داخل الهليوكوبتر ، وتحدّث إلى قائدها بكلمات عبرية ، قهقه بعدها الطيّار ، وقال بالعربية :

ــ زميلى يقول إنك أضعف جندى رآه فى عمره كله .

تمتم (هشام) :

ــ يضع سره فى أضعف خلقه .

عقد الطيار حاجبيه ، وقال :

ــ ماذا تعنى ؟

تهالك (هشام) ، وهو يجيب :

ــ لاعليك .. إنه مجرّد مثل شعبى مصرى .

مطّ الطيّار شفتيه فى امتعاض ، وضغط أزرار قيادة الهليوكوبتر ، وجذب عصا القيادة ، وارتفع بالهليوكوبتر فى بطء ، فى حين صوّب رفيقه فوهة مدفعه الآلى إلى (هشام) فى تراخ ، وكأنما أدرك أن هذا الأخير قد بلغ درجة من الضعف والإنهاك ، تمنعه من إتيان أى عمل هجومى ، أو دفاعى ..

أما (هشام) نفسه ، فقد ترك جسده يتراخى ، وهو يشعر بمرارة شديدة فى أعماقه ..

لقد خسر لعبته كلها ..

وفقد صديقه ..

لم يستطع الذود عن صديقه ، عندما احتاج إليه هذا الصديق ..

كان هذا أكثر مايؤلمه ..

أغلق عينيه فى مرارة ، وهو يحاول أن يبعد عنهما صورة (طارق) ، الشاحب الوجه ، الراقد بين صخرتين كبيرتين ، فى ممر (متلا) ..

وعلى الرغم منه ، انحدرت من عينيه قطرة دمع ، بلّلت وجنته ، ثم سقطت على راحته ..

قطرة حملت كل حزنه ولوعته ، وسالت بين أصابعه ، لتبلّل أرضية الهليوكوبتر بنقطة باهتة ، لم تلبث حرارة الشمس أن ذهبت بها بلاعودة ..

وبينما كان (هشام) يجترّ أحزانه ، زفر الطيار فى حنق ، وهو يقول :

ــ يالحرارة هذا الصيف !

ومسح العرق الذى يغطى جبهته بيده ، ثم نفض قطراته على زجاج الهليوكوبتر ، وهو يلتقط مسماع جهاز اللاسلكى ، ويقول :

ــ هنا (ابن إليعازر) .. معنا أسير مصرى جديد ، ونحن الآن فى طريق العودة إلى العش الرئيسى ، ونعبر فى هذه اللحظة ممر (متلا) ، و...

لم يسمع (هشام) باقى العبارة ، فقد شحذت الكلمة الأخيرة حواسه بغتة ، ودفعت أطنانًا من الحماس إلى عروقه ..

إنهم يعبرون الآن ممر (متلا) ..

حيث (طارق) ..

وبدون تفكير دفع (هشام) ظهره بقوة فى مقعده ، ثم رفع قدميه وضربهما فى ظهر مقعد الطيّار ، الذى اندفع إلى الأمام ، وأمال عصا القيادة بالتبعية ، وهو يصرخ :

ــ ماذا تفعل أيها المجنون ؟

مالت الهليوكوبتر إلى أسفل فى حدة ، وهوت نحو الممر ، وسقط الجندى الآخر عن مقعده ، وصرخ :

أيها المصرى الـ .....

قبل أن يتمّ عبارته ، كان (هشام) يدفعه بيديه ، بكل ماسرى فى عروقه من قوّة ، فاختلّ توازن الجندى ، وهتف :

ــ ماذا حدث لك أيها الـ .....؟

ولكنه فجأة أدرك أن باب الهليوكوبتر خلفه تمامًا ..

أدرك هذا ، عندما وجد جسده يندفع خارج الهليوكوبتر ..

ويهوى ..

وانطلقت صرخة الاسرائيلى ، وهو يسقط من الهليوكوبتر ، ويرتطم بصخور ممر (متلا) ، ثم يقطع الأمتار الباقية فى صمت ، ويرتطم برمال (سيناء) ..

أما الجندى الآخر ، الذى يقود الهليوكوبتر ، فقد جذب عصا القيادة بكل قوته ، وهو يصرخ :

ــ لقد قتلته أيها العربى .. قتلته أيها الـ .....

لم يعد هناك مجال للتراجع ، لذا فقد دفع (هشام) الطيّار فى ظهره مرة أخرى ، ورأى الصخور تقترب مرة ثانية ، والطيّار يبذل أقصى جهده للسيطرة على الهليوكوبتر ، صارخًا :

ـ أى مجنون هذا ؟!.. أى أحمق ؟!..

ثم ارتطمت مروحة الهليوكوبتر بالصخور ، وانحرفت فى عنف ، ثم هوت نحو الرمال بسرعة مذهلة ..

عندئذ فقط أدرك (هشام) مافعله بنفسه ..

لقد انتحر ..

* * *

٤ ـ اللقاء ..

لاتسألونى كيف نجا (هشام) ..

لاتسألونى كيف وجد نفسه سليمًا معافى ، يرقد فوق رمال (سيناء) ، بعد أن هوت الهليوكوبتر كالحجر ، وارتطمت بهذه الرمال بكل عنف ..

كل مايذكره هو ذلك الرعب الهائل ، الذى ملأ كيانه ، وسيطر على كل حواسه ، مع سقوط الهليوكوبتر ، حتى أنه أغمض عينيه فى قوة ..

ثم حدث الارتطام ..

ووجد جسده يطير فى الهواء ، ثم يهبط على الرمال ، كما لو أن يدًا حانية قد حملته فى رفق ، وأرقدته فوق رمال وطنه فى حرص ..

لاتسألونى لماذا لم يتحطَّم جسده ، كما حدث للطيَّار الإسرائيلى ، فأنا لاأعرف الجواب ..

ولاحتى (هشام) يعرفه ..

الكلمة الوحيدة ، التى تضع تفسيرًا لما حدث ، هى القدر ..

القدر الذى لم يُعلن بعد انتهاء حياة (هشام) ، على هذه الأرض ..

المهم أنه قد نجا ، أيًا كانت الأسباب ، ووجد نفسه يرقد سليمًا معافى على الرمال ، وعلى بعد أمتار منه تشتعل النيران فى الهليوكوبتر ..

ولربع ساعة كاملة ، بقى (هشام) راقدًا على رمال (سيناء) ، مغلقًا عينيه ، ومسترخيًا تمامًا ، وقرقعة النيران ، التى تلتهم الهليوكوبتر تملأ أذنيه ..

نهض مستعيدًا كل حيويته ونشاطه ، كما لو أن هذه الدقائق قد امتصّت كل تعبه وتوتّره ..

وفى بطء ، رفع (هشام) عينيه إلى أعلى ذلك المرتفع الصخرى ، الذى يصنع أحد جانبى الممر ، وغمغم :

ــ اطمئن يا (طارق) .. اطمئن ياصديقى العزيز .. أنا فى الطريق إليك .

وبدأ يتسلق جدار الممر ..

* * *

جهد هائل ، ذلك الذى بذله (هشام) ، وهو يتسلّق الجدار الصخرى بذراعيه النحيلين ، وأصابعه التى لم تعتد سوى لمس أصابع البيانو ، وإطلاق النغمات العذبة ..

جهد هائل ، لم يكن هو نفسه يتصوَّر قدرته على القيام به ..

ولكنه فعله ..

كان كلما أنهكه التعب يتذكّر صديقه (طارق) ، وحاجته إليه ، فيدفع جسده دفعًا للاستمرار والمواصلة ..

حتى بلغ القمة ..

لم يكد يبلغها حتى سقط فوقها ، وراحت أنفاسه تتلاحق فى صعوبة ، وصدره يعلو ويهبط كشخص يفارق الحياة ..

ومضت دقائق طويلة ، قبل أن تهدأ أنفاسه ، وينهض جالسًا ، ويدور بعينيه فوق القمة ..

ثم انتفض جسده كله فى انفعال ..

هاهوذا موضع (طارق) ..

هاهما تان الصخرتان ، اللتان رآهما فى حلمه ..

اندفع دون تردّد نحو الصخرتين ، ولم يكد يبلغهما ، حتى ارتفعت من بينهما يد منهكة ، تحمل مسدّسًا كبيرًا ، ومصحوبة بصوت حاول صاحبه أن يبثّه أكبر قدر ممكن من الحزم والخشونة ، وهو يقول :

ــ ابرز هويتك يارجل .. مصرى أنت أم إسرائيلى ؟.. انطقها بسرعة ، فلن أنتظر حسم الأمر طويلًا .

اختلج قلب (هشام) ، عندما تعرَّف الصوت ، وانحنى بسرعة يلقى نظرة على ذلك الوجه ، الذى طال شوقه لرؤيته ، وهو يقول :

ــ (طارق) .

قالها بكل لهفة الدنيا وفرحتها ، واتسعت عينا (طارق) فى ذهول ، وهو يهتف :

ــ (هشام) ؟!.. مستحيل !

ترنّح (هشام) ، وهو يقول فى سعادة :

ــ تمامًا كما رأيتك يا (طارق) .. حمدًا لله أننى وجدتك .. حمدًا لله .

ثم ألقى نفسه بين ذراعى صديقه ..

أو بمعنى أدق ، سقط بينهما ..

سقط فاقد الوعى ..

* * *

كانت الشمس تغرب فى الأفق ، عندما استعاد (هشام) وعيه ، ولم يكد يفتح عينيه ، ويطالعه وجه (طارق) الشاحب ، حتى ابتسم فى ارتياح ، وغمغم :

ــ أخيرًا التقينا يا (طارق) .

مسح (طارق) العرق الغزير ، الذى يغطى جبين صديق عمره ، وهو يقول فى لهجة تجمع مابين الحنان والعتاب :

ــ ماذا فعلت أيها المجنون ؟.. لماذا عدت إلى هنا ؟

نهض (هشام) جالسًا ، وهو يجيب :

ــ لم أكن لأتركك هنا وحدك .. أكنت تفعل ، لو كنت مكانى ؟

هزَّ (طارق) رأسه نفيًا ، وهو يطالع وجه صديقه فى امتنان ، ثم سأله فى خفوت ، وكأنما يخشى أن تهزمه مشاعره ، لو ارتفع صوته قليلًا :

ــ ولكن كيف عرفت أننى هنا ؟

ابتسم (هشام) ، وأجاب :

ــ هل تذكر هؤلاء الصبية ، والبيانو الصغير ؟

أومأ (طارق) برأسه إيجابًا ، وغمغم :

ــ نعم .. بالتأكيد .

ثم ناول (هشام) نفس الزمزمية القديمة ، التى كان يحملها فى حزامه طيلة الوقت ، وقال :

ــ هيا .. ارو ظمأك بجرعة ماء ، من الواضح أنك تحتاج إليها .

قال (هشام) معترضًا :

ــ لا .. لقد حملتها طوال الطريق من أجلك .. إنك لم تجرع الماء منذ زمن .. أليس كذلك ؟

ربَّت (طارق) على كتف صديقه ، وتمتم :

ــ سنقتسم هذا الماء إذن ياصديقى .. كما نفعل دائمًا .

اقتسما الماء بالفعل ، ثم استرخى (طارق) إلى جوار زميله ، وسأله :

ــ كيف وصلت إلى هنا ؟

روى له (هشام) كل ماحدث ، منذ بدأ مسيرته نحو الشرق ، وحتى التقيا ، فتطلَّع إليه (طارق) فى دهشة ، وقال :

ــ أنت يا (هشام) ؟!.. أنت فعلت هذا ؟!!..

أمسك (هشام) يد صديقه ، وابتسم قائلًا :

ــ لقد فعلته من أجلك ياصديقى .. إننى أحاول سداد جزء من ديونى لك .

قال (طارق) فى دهشة :

ــ أية ديون ؟

ابتسم (هشام) فى امتنان ، وهو يقول :

ــ ألم تدافع عنى طوال عمر صداقتنا ؟.. ألم تكن دائمًا الدرع والسيف لى ؟

هتف (طارق) معترضًا :

ــ من أوحى لك بهذه الفكرة العجيبة ؟.. إننا صديقان يافتى ، ولاتوجد ديون بين الأصدقاء .

ضغط (هشام) يده مرة أخرى ، وهو يغمغم فى لهجة ، لايشدو بها اللسان إلا مع صديق :

ــ بالتأكيد .

تطلَّع إليه (طارق) لحظة فى صمت ، وبدا وكأنه يرغب فى قول شىء ما ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه ، وأشار إلى فجوة بين الصخرتين ، تسمح برؤية أسفل الممر ، وقال :

ــ لقد حضر الإسرائيليون ، وحملوا جثة الجنديين ، اللذين صرعتهما أنت ، وفتشوا المنطقة بحثًا عمَّن قتلهما ، ثم انصرفوا ، ولاشكَّ أنهم

سيعودون لوضع حراسة على الممر ، مع مشرق شمس الغد ، وعندئذ ستصبح مغادرة هذا المكان ضربًا من المستحيل .

قال (هشام) فى حزم :

ــ هذا يعنى أن نبدأ رحلة العودة الآن .

أجابه (طارق) فى صرامة :

ــ بل أن تبدأها وحدك .

سأله فى دهشة :

ــ ماذا تعنى يا (طارق) ؟

أجابه (طارق) فى حدة :

ــ أعنى أننى لم أبق هنا ، خوفًا من مواجهة الإسرائيليين ، وإنما بقيت بسبب ساق المصابة ، وعظمة الساق المكسورة ، وهذا يعنى ــ بكل بساطة ــ أننى عاجز تمامًا عن الحركة ، ويعنى أيضًا أن الفرصة الوحيدة للفرار من هنا ، هى أن تفرّ وحدك .. هل فهمت ؟

ران عليهما الصمت لحظات ، و(هشام) يتطلّع إلى وجه صديقه ، قبل أن يقول فى حسم :

ــ لا .. لم أفهم .

صاح به (طارق) :

ــ اسمعنى جيّدًا يا (هشام) ..

ولأوّل مرة فى حياته ، قاطعه (هشام) ، وهو يقول :

ــ بل اسمعنى أنت يا (طارق) .

ــ ألجمت لهجته الصارمة (طارق) ، فتطلّع إليه فى دهشة ، وهو يستطرد :

ــ إننى لم أقطع المسافة من قلب (سيناء) إلى هنا ، بدلًا من أن أتبع الجميع إلى شاطئ القناة ، لكى تطلب منى أن أتركك ، وأعود وحدى .. لا يا صديقى .. فلتعلم إذن أننى أفضّل الموت معك ، على أن أتركك وأنجو بنفسى .. كيف تتصوّرنى أواجه نفسى فى المرآة ، أو حتى فى أحلامى ، إذا ماتركتك وحدك هنا ، وسعيت لإنقاذ حياتى فقط ؟

قال (طارق) :

ــ أؤكّد لك أن الإسرائيليين لن يحاولوا قتلى ، بل سيكتفون بأسرى ، و...

قاطعه (هشام) بلهجة أشدّ حسمًا هذه المرة :

ــ فليأسرونا معًا .

وتطلّع نحو الأفق ، حيث غربت الشمس ، مستطردًا بكل إصرار الدنيا وعنادها :

ــ أو ننجو معًا .

وانحسم النقاش ..

٥ ــ العــودة ..

على الرغم من الآلام ، التى يشعر بها ، لم يملك (طارق) إلا أن يبتسم ، وهو يتطلّع إلى (هشام) ببنيته الضئيلة ، وقد انهمك فى صنع محفّة من بقايا أخشاب وحبال ، وراح يستخدم كل مايعثر عليه ، وسط حطام المعسكر ، الذى كان يضمّ بعض رفاق (طارق) ، فوق القمة ، قبل الهجوم الإسرائيلى ، وبصوت شاحب كوجهه ، غمغم (طارق) :

ــ أين تعلمت كل هذا ؟

ابتسم (هشام) ، والعرق يغمر وجهه ، وأجاب :

ــ من الكتب .

تطلّع إليه (طارق) فى مودّة ، وهو يقول :

ــ عجبًا !.. وهل تفيد القراءة إلى هذا الحد ؟.. لقد صنعت جبيرة لقدمى المكسورة ، باستخدام قطعتين من الخشب ، وخيط متين ، والآن تصنع محفّة ، ورافعة بدائية .. فيم تتصوَّر استخدامها إذن ؟

أجابه (هشام) :

ــ فى إنزالك من هنا .

حدّق (طارق) فى الرافعة بدهشة ، ولم يمكنه أبدًا أن يصدّق أن قائمين من الخشب يمكنهما إنزاله من قمة الممر ، بل ضخامة جسده ، وخاصة عندما يقف إلى جوارهما شخص ضئيل الحجم كـ (هشام) ، فهتف مستنكرًا :

ــ هذه ؟!

اعتدل (هشام) ، ومسح عرقه بكفه ، وأجابه فى بساطة :

ــ نعم .. فهى رافعة من النوع الثانى ، يكون فيها ذراع القوة أطول من ذراع المقاومة ، وبهذا لايحتاج المرء إلا لبذل جهد صغير ، فى سبيل رفع جسم كبير ، ولقد صنعتها على نحو يتيح لى إدارتها بعد وضعك على المحفّة ، و...

قاطعه (طارق) فى قلق :

ــ مهلًا .. هل سيمكنك أن تفعل كل هذا وحدك ؟

هتف (هشام) فى حماس :

ــ بالتأكيد .

كان (طارق) يعلم أن صديقه يكابر ، إلا أنه لم يكن يملك الاعتراض ، فلقد كشف ــ لأوّل مرة ــ كم يمتلك (هشام) من عناد

وإصرار ، أخفتهما طبيعته الرقيقة ، وأصابعه المرنة على أصابع البيانو ، سنوات وسنوات ..

ولقد لاذ (طارق) بالصمت ، واكتفى بمراقبة صديقه ، الذى نقله فى رفق إلى المحفّة ، ثم ثبّتها إلى أحد ذراعى الرافعة ، وانتقل إلى الذراع الأكثر طولًا ، وبدأ يرفعه بالمحفة ، ويديرها إلى حافة الجدار الصخرى ، حتى أصبح (طارق) معلقًا بمحفّته فى الهواء ..

كان من الواضح أن (هشام) يبذل مجهودًا هائلًا ، يفوق احتمال جسده النحيل بمراحل ، على الرغم من وجود تلك الرافعة ، التى تعاونه ، إلا أن ذلك المزيج من الاصرار والحزم ، الذى يكسو وجهه ، كان يشير إلى قدرته على مواصلة العمل ، حتى آخر رمق ..

وبلهجة يغلب عليها الحنان ، وتلهث حروفها تعبًا ، قال (هشام) :

ــ الآن ستبدأ مرحلة الهبوط .. اغلق عينيك ياصديقى ، واسترخ تمامًا .

قالها وبدأ التنفيذ بالفعل ..

وبدأ جسد (طارق) يهبط بالمحفّة ، وهذا الأخير صامت ، يمتلئ قلبه بالقلق على رفيق عمره ، ويمتلئ عقله بالتساؤل ..

فحتى بالنسبة إليه هو ، كرجل قوات خاصة محنّك ، تلقّى تدريبات بالغة الدقة ، كانت المهمة تبدو عسيرة ، فماذا لو قام بها شاب مرهف الحس ، رقيق البدن ، مثل (هشام) ؟!..

أما (هشام) ، فقد توقّف عقله عن التفكير تمامًا ، فى تلك اللحظات ، وسمح لكل طاقته ودماءه بالذهاب إلى عضلاته ، التى انقبضت عن آخرها ، وهو يلعب دور محرّك المصعد ، ويحاول إنزال صديقه على الرمال فى رفق ..

وخيّل إليه أن الهبوط استغرق دهرًا ، وأن عضلاته ستنهار بعد لحظات ، قبل أن يتلاشى انقباض هذه العضلات بغتة ، ويتراخى الحبل ، الذى يربط المحفّة إلى الرافعة ..

وهنا .. هنا فقط ، ترك (هشام) جسده يتهالك بين الصخور ..

لقد بلغ صديقه الرمال ، وأصبح من حقه هو أن يحصل على قدر من الراحة ..

لم يكد يستكين لهذا الخاطر ، ويسمح لجسده بالاسترخاء لحظة ، حتى صرخ جزء من عقله يستنكر هذا ..

كيف يسترخى ، وصديقه وحده بأسفل ، عاجز عن الحركة ؟!.

ماذا لو هاجمه جندى من الأعداء ، أو حتى ذئب جائع ؟..

أعادت إليه الفكرة شيئًا من قوته ، فهبّ من مكانه ، وأسرع يهبط الجدار الصخرى ..

وكان الهبوط أكثر سرعة وسهولة من الصعود ..

وماهى إلا دقائق ، حتى وجد نفسه إلى جوار (طارق) ، الذى رقد صامتًا فوق المحفّة ، التى استقرّت على الرمال ، فانحنى نحوه ، وسأله :

ــ أأنت بخير ؟

أجابه (طارق) بإيماءة من رأسه ، وتمتم فى شحوب :

ــ حمدًا لله .

جلس (هشام) إلى جواره ، وضمّ ركبتيه إلى صدره ، وأحاطهما بذراعيه ، ثم ألقى رأسه عليهما ، وصمت طويلًا ، فى محاولة لالتقاط أنفاسه ، واستعادة قوته ..

واحترم (طارق) صمته ، فلم ينبس ببنت شفه ، طوال نصف ساعة كاملة ، بدا له خلالها أن (هشام) قد استغرق فى النوم ، وهو على هذا الوضع ، حتى انتفض (هشام) بغتة ، وهتف :

ـ يا إلهى !.. هل استسلمت للنوم ؟

أجابه (طارق) مشفقا :

ـ قليل من الوقت فحسب .

نهض (هشام) ينفض الرمال عن ثوبه ، وهو يقول فى توتر :

ـ لا ينبغى أن نضيع الوقت .. هيا .. سنبدأ رحلة العودة على الفور .

سأله (طارق) فى مرارة :

ـ كيف ؟

هتف وهو يحلّ الحبل ، الذى يربط (طارق) إلى المخفّة :

ـ ماذا تقصد بكيف ؟.. إننا سننطلق إلى الغرب ، حتى لو اضطرنا الأمر إلى قطع المسافة على الأقدام ، و...

انتبه بغتة إلى قدم صديقه المكسورة ، فانحبست الكلمات فى حلقه ، واحتقن وجهه لحظة ، غمغم (طارق) خلالها :

ـ ألم أقل لك ؟

جلس (هشام) إلى جوار صديقه ، وغمغم فى توتّر :

ـ هناك وسيلة حتمًا .

ثم أمسك يد (طارق) بغتة ، وأضاف فى حسم :

ـ اسمع يا (طارق) .. إننا نؤمن بالله (سبحانه وتعالى) ، ولو أنه كتب لنا الحياة ، فسنجد الوسيلة حتمًا ، أو...

أمسك (طارق) يده فجأة ، وهو يقول :

ـ أنصت .

أرهف (هشام) سمعه لحظات ، ثم سأله فى قلق :

ـ ما المفروض أن أسمعه ؟

أجابه (طارق) فى انفعال :

ـ سيارات .. سيارات تقترب من الشرق .

لم يكد ينطقها ، حتى بلغت أصوات المحركات مسامع (هشام) ، فتمتم فى هلع :

ـ يا إلهى !.

وأسرع يحمل رفيقه من تحت أبطيه ، ويجذبه فوق الرمال ، إلى الصخور الضخمة ، عند قاعدة الجدار الصخرى ، و(طارق) يقول :

ـ إنهم الإسرائيليون .. لقد قرروا وضع فرقة حراسة على الممر .

أخفى (هشام) جسد صديقه خلف صخرة كبيرة ، ثم أسرع عائدا إلى المخفّة ، فأخفاها بالرمال ، فى نفس الوقت الذى بدت فيه مصابيح السيارات ، فأسرع عائدًا إلى حيث ترك صديقه ، وانكمش إلى جواره يلهث ، وكلاهما يختلس النظر ، من فرجة خلف الصخرة ، إلى بداية الممر ..

ووصلت فرقة الحراسة ..

وكان من الواضح أنها فرقة مؤقتة ، أو أن ثقة الاسرائيليين بنصرهم كانت أكثر مما ينبغى ، حتى أنهم وجدوا مثل هذه الفرقة الصغيرة كافية ، لحراسة ممر حربى هام ، مثل ممر (متلا) ؛ إذ كانت الفرقة تتكوّن من أربع سيارات ، من نوع الجيب ، تضمّ عشرين جنديًا ، و٠ابة واحدة ، بطاقم من أربعة أفراد ..

وفور وصول الاسرائيليين ، بدأوا فى إعداد معسكرهم ، وأشعلوا بعض النيران ، على قيد أمتار من سياراتهم ، وجلسوا يتسامرون ويتمازحون ، فغمغم (طارق) :

ــ يا للأوغاد !

أما (هشام) فقد بقى صامتًا ، يتطلّع إلى الموقف لحظات ، ثم التفت إلى صديقه ، يسأله :

ــ ألديك أسلحة أخرى ، بخلاف المسدّس ؟

سأله (طارق) مستنكرًا :

ــ لماذا ؟.. هل تفكّر فى مقاتلتهم وحدك ؟

ابتسم (هشام) فى شحوب ، وهو يقول :

ــ وهل يبدو لك هذا منطقيًا ؟..

تطلّع إليه (طارق) لحظة فى صمت ، قبل أن يجيب :

ــ لايمكننى الجزم .

صارت ابتسامة (هشام) أكثر شحوبًا ، وهو يقول :

ــ حسنًا .. أخبرنى ماذا لديك ؟ وستفهم ما أقصده فيما بعد .

أفرغ (طارق) جيوبه ، وقال :

ــ لقد نفدت ذخيرتى تقريبًا ، وكل ما لدى مسدّس تحوى خزانته أربع رصاصات ، وعلبة أعواد ثقاب ، وزمزمية فارغة ، وبعض قطع السكّر .

قال (هشام) فى اهتمام :

ــ حسنًا .. احتفظ بالمسدّس ، وأعطنى الباق .

سأله (طارق) فى حدة :

ــ هل ستقاتل دستتين من الأعداء ، بزمزمية فارغة ، وعلبة أعواد ثقاب ؟

رفع (هشام) سبّابته أمام وجهه ، وقال :

ــ وبعض قطع السكّر .

هتف (طارق) فى صوت خافت :

ــ هل جننت ؟

ربّت (هشام) على كتف صديقه مهدّئًا ، وهو يقول فى رفق :

ــ لا يا صديقى .. صدّقنى .. إننى أعلم جيّدًا ما الذى يمكننى فعله .. سأشنّ على هؤلاء الأعداء حربًا غير متوقّعة .

وابتسم فى شحوب ، مستطردًا :

ــ حرب كيميائية .

تطلّع إليه (طارق) فى دهشة ، فربّت على كتفه مرة أخرى ، وقال :

ــ المهم الآن أن نزحف معًا ، حتى نبلغ أقصى نقطة فى الممر غربًا ، وبعدها حاول أن تستند إلى صخرة كبيرة ، وتقف متأهّبًا ، حتى أعود إليك .

أمسك (طارق) يده فى قوة ، وسأله فى توتّر :

ــ أخبرنى أوّلًا ماذا ستفعل ؟

عادت إلى (هشام) ابتسامته الشاحبة ، وهو يقول :

ــ ألم أقل لك يا صديقى ؟.. إنها الحرب .. الحرب الكيميائية .

ولم يفصح عن أكثر من هذا ..

✲ ✲ ✲

٦ ــ الحرب ..

من المؤكد أن الإسرائيليين كانوا مفعمين بالثقة والزهو ، بعد ذلك الانتصار الساحق ، الذى حققوه فى حرب خاطفة ، حتى أنهم عندما التفوّا حول النار يتسامرون ، لم يحاولوا ترك أحدهم لحراسة السيارات الأربع أو الدبابة ؛ لذا فقد استطاع (هشام) التسلّل إلى حيث السيارات فى سهولة . وهناك فتح خزان وقود إحدى السيّارات ، ثم مزّق كم قميصه ، وأدلاه فى خزان الوقود ، وتركه لحظات ، حتى تشبّع به ، ثم جذبه فى رفق ، وراح يصفّى الوقود السائل من كمّ القميص ، داخل الزمزمية الفارغة ، حتى اعتصر الكمّ تمامًا ، ثم كرّر العملية أكثر من مرة ، إلى أن امتلأت الزمزمية بالبنزين حتى آخرها ، فأغلقها بقطعة من القماش المبلّل بالبنزين ، اقتطعها من كمّ قميصه الممزّق ، وبعدها ألقى قطعتين من السكّر داخل خزان الوقود ، وانتقل إلى سيارة ثانية ، وفعل بها المثل ، ثم إلى الثالثة ، وكذلك فعل بخزان وقود الدبّابة ، وترك فقط سيارة واحدة ، دون أن يفعل بها هذا ..

وألقى (هشام) نظرة ثانية على الإسرائيليين ، الذين ارتفعت ضحكاتهم وسط الظلام ، وغمغم :

ــ الآن حانت لحظة الجدّ .

وأشعل أحد أعواد الثقاب ، وأشعل منه قطعة القماش المبلّلة بالبنزين ، فى غطاء الزمزمية ، ثم ألقى الزمزمية نحو الدبّابة ..

ودوى الانفجار يشقّ سكون الليل فى المنطقة ..

انفجرت الزمزمية ، بكل الوقود داخلها ، وتساقط البنزين المشتعل على الدبابة ، فهبّ الإسرائيليون مذعورين ، وحمل كل منهم سلاحه ، وهم يتجهون بأبصارهم إلى الدبابة المشتعلة ..

وهنا انطلق (هشام) من خلف ظهورهم ، إلى السيارة الوحيدة ، التى لم يضع قطع السكّر فى خزان وقودها ، وقفز داخلها ، وشكر للإسرائيليين ذلك الاستهتار ، الذى جعلهم يتركون مفاتيح القيادة فى موضعها ، وأدار المحرّك ..

وهنا فقط انتبه إليه الإسرائيليون ، وصرخ أحدهم بالعبرية ، واستدارت إليه فوهات مدافعهم الآلية ، فى نفس اللحظة التى انطلق فيها بالسيارة عبر الممر ..

وشعر (هشام) بالرصاصات تنهال حوله كالمطر ، وسمع بعضها يرتطم بجسم السيارة ، ولكنه لم يتوقّف ، بل زاد من سرعته ، حتى بلغ نهاية الممر ، حيث كان (طارق) يستند إلى صخرة كبيرة ، وقد ازداد وجهه شحوبًا ، فقفز (هشام) من السيارة ، وعاونه على ركوبها ، وهو يقول :

ــ لقد نجحنا يا صديقى .

تطلّع إليه (طارق) فى ذهول ، وقال :

ــ كيف فعلتها ؟

أجابه (هشام) وهو يعود للقفز داخل الجيب :

ــ لقد استخدمت كل ماحصلت عليه منك .

وانطلق بالسيارة مبتعدًا ، دون أن يضيف حرفًا ..

وفى نفس اللحظة ، كان الإسرائيليون يقفزون داخل سياراتهم ، ويديرون محركاتها ، لمطاردة (طارق) و(هشام) ..

ولكن المحركات أطلقت زئيرًا عنيفًا ، وارتجّت السيارات فى قوة ، ثم توقّفت المحركات تمامًا ..

وأصيب الإسرائيليون بالذهول ..

ماذا أصاب سياراتهم ؟..

ما الذى فعل هذا ؟..

« السكّر » .

نطقها (هشام) فى انفعال ، وهو يركّز كل طاقته على الابتعاد بالسيارة ، والانطلاق بها نحو الغرب ، فسأله (طارق) فى دهشة :

ــ وما الذى يفعله السكّر ؟

أجابه (هشام) :

ــ إنه يتفاعل مع البنزين ، فيمنع عملية احتراقه ، ويفسد المحرّك .. لقد قرأت هذا ، فى أحد الكتب العلمية .

هتف (طارق) فى دهشة :

ــ قرأته ؟!

واستند إلى مقعده ، وهزّ رأسه فى حيرة ، ثم قال :

ــ أتعلم يا (هشام) ؟.. إذا ما كُتِبَتْ لنا النجاة ، بعد كل هذا ، ونجحنا فى العودة إلى وطننا ، سأولى اهتمامًا أكبر إلى القراءة .

قال (هشام) فى حماس :

ــ سنعود ياصديقى .. سنعود بإذن الله (سبحانه وتعالى) .

كان ذلك الانتصار المحدود ، الذى حقّقه ، قد بعث فى نفسه نشوة عجيبة ، أزالت كل ضعفه وتهالكه ، وبثّت فى عروقه حماسًا لم يعرف مثله ، فى عمره كله ..

لقد عثر على صديقه ..

وهذا يكفيه ..

وطوال ساعتين كاملتين ، انطلق (هشام) بالسيارة عبر الصحراء ، فى اتجاه الغرب ، دون أن ينبس ببنت شفة ، أو يتحدّث إلى (طارق) ، الذى أرخى جفنيه ، ولاذ بالصمت بدوره ، وإن عجز عن اجتلاب النوم ، فى مثل هذه الظروف ..

وأخيرًا بدأت الشمس تُشرق خلفهما ، فغمغم (هشام) :

ــ من المدهش أننا لم نلتق بأية مدرعات للعدو ، طوال الطريق من الممرات إلى هنا .

تمتم (طارق) :

ــ بل هى معجزة .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى برزت أمامهما دبابة إسرائيلية ، صعدت من خلف تلّ قريب ، ثم اعتدلت ، وصوّبت مدفعها إلى سيارتهما مباشرة ، فقال (طارق) :

ــ توقّف يا (هشام) ، فلن يتردّد هذا الوغد عن نسفنا ، لو لم نفعل .

لم يتوقّف (هشام) ، وإنما واصل سيره ، محاولًا الابتعاد عن فوهة مدفع الدبابة ، وهو يقول فى توتّر بالغ :

ــ ربما ظننا من الإسرائيليين ، لأننا نقود (جيب) إسرائيلية .

ولكن مدفع الدبّابة تابعهما فى إصرار ، فقال (طارق) فى حدة :

ــ قلت لك توقف .. إنه يعلم أننا لسنا من رفاقه .. هذا واضح

ولكن (هشام) قال فى عناد :

ــ يمكننا أن نحاول ، و...

انطلق مدفع الدبَّابة ليبتر حديثه ، وانفجرت القنبلة على قيد متر واحد من مقدِّمة السيارة ، التى أوقفها (هشام) بضغطة عنيفه على الكابح ، فى حين قفزت الرمال إلى وجهه وكست السيارة بغلاف أصفر سميك ، قبل أن تدفع يد معروقة كوة الدبابة ، ويصعد منها ضابط إسرائيلى ، صوَّب إلى السيارة مدفعه الآلى ، وقال فى صرامة :

ــ الطلقة القادمة ستنسفكما نسفًا أيها المصريان .

لم ينبس (طارق) أو (هشام) ببنت شفة ، وإنما لاذا بالصمت التام ، وشعور بالمرارة يملأ حلقيهما ، فى حين استطرد الضابط :

ــ لقد أبلغنا رفاقنا لاسلكيًا بما فعلتموه عند الممر ، وطلبوا منا البحث عنكما ، وإلقاء القبض عليكما ، وإعادتكما إليهم .. ولكن حسن حظنا أن وجدناكما ، وإن كنت لا أنوى الإلتزام تمامًا بما طلبه الرفاق .

ثم صوَّب مدفعه إلى رأسيهما ، مستطردًا :

ــ سأقتلكما هنا ، وينتهى الأمر .

انتقلت عين (هشام) فى قلق إلى سبَّابة الإسرائيلى ، ورآها تعتصر زناد المدفع الآلى فى بطء ..

وأدرك أن الموت آت ..

آت لا ريب ..

* * *

لو قُدِّر لـ (طارق) و(هشام) أن يرويا قصتهما ، من هذه النقطة ، لاتفقا على أن ما حدث فى اللحظة التالية ، كان أقرب إلى المعجزة ، أو هو أشبه بأحداث فيلم سينمائى محبوك ، تعتمد أحداثه على سلسلة من المفارقات

المتتابعة ، ففى نفس اللحظة التى صوَّب فيها الإسرائيلى مدفعه إليهما ، وهمَّ بإطلاق نيرانه على رأسيهما ، انطلقت بغتة رصاصة من مكان ما ، واخترقت جانب رأس الضابط ، الذى جحظت عيناه ، وارتمى رأسه إلى الجانب المضاد ، ثم سقط كله خارج الدبَّابة كالحجر ..

وفى نفس اللحظة برز من بين الرمال رجل يرتدى الثياب البدوية ، وقفز يعتلى الدبَّابة ، ثم ألقى داخل برجها المفتوح قنبلة يدوية ، ووثب بعيدًا عنها فى ثانية واحدة ..

وانبعثت من داخل الدبابة صرخة هلع ..

ثم دوَّت القنبلة بدوىّ مكتوم ..

وارتجَّت الدبابة فى قوة ، ثم استكانت على الرمال ، والدخان يتصاعد من برجها فى كثافة ..

وفجأة ظهر عدد من البدو ، كما لو أنهم نبتوا بغتة من قلب الرمال ، وأسرع أحدهم نحو السيارة ، ومدَّ يده يصافح (طارق) و(هشام) وهو يقول :

ــ حمدًا لله على سلامتكما .. أتعشم أن نكون قد وصلنا فى الوقت المناسب .

غمغم (هشام) :

ــ لقد فعلتم .

لم يضع البدوى وقتًا فى نقاش أو حوار ، وإنما أشار إلى الجنوب الغربى ، وهو يقول :

ــ اتخذا هذا الطريق فى خطّ مستقيم ، ولن يقابلكما إسرائيلى واحد ، وعندما تبلغان شاطئ القناة ، ستجدان شقيقى هناك ، مع زورق صغير ، سيكفى لنقلكما إلى الضفة الغربية .. هيا .. اسرعا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى تراجع ، وابتعد فى سرعة ، واختفى مع الآخرين بغتة كما ظهروا ، فحدّق (هشام) فى الرمال فى ذهول ، لولا أن قال (طارق) :

ــ ماذا تنتظر ؟

انتفض (هشام) ، كما لو كان يستيقظ من حلم طويل ، ثم ابتسم فى ارتباك ، وغمغم :

ــ نعم .. ماذا أنتظر ؟

ثم أدار محرّك السيارة مرة أخرى ، وانطلق بها نحو الجنوب الغربى ..

واستغرقت المسيرة هذه المرة نصف الساعة فقط ، قبل أن يلوح شاطئ القناة ، فهتف (هشام) :

ــ لقد وصلنا ياصديقى .. هاهوذا النجاح يلوح فى الأفق .

كان شخوب (طارق) قد بلغ مبلغه ، حتى ليخيّل إليك أنه لولا بنيته القوية ، لكان الآن فى عداد الموتى ، وهو يتمتم :

ــ لا تبغ فراء الدب قبل صيده ياصديقى .

زاد (هشام) من سرعة السيارة ، وانطلق بها نحو شاطئ القناة ، بعد أن لمح البدوى هناك ، يقف إلى جوار زورقه ، وهتف :

ــ هاهوذا زورق النجاة .

تمتم (طارق) فى تهالك :

ــ وماذا عن هذا ؟

التفت (هشام) إلى حيث يشير زميله ، وهوى قلبه بين ضلوعه ، فقد كانت هناك سيارتان من نوع (الجيب) ، تحملان الشعار الإسرائيلى ، تنطلقان نحوهما ..

وهتف (هشام) :

ــ لا.. ليس الآن .

كان يقترب من الزورق بسرعة ، حتى أن البدوى لمحهما ، وأدرك قصتهما من زيهما العسكرى المصرى ، على الرغم من (الجيب) الإسرائيلية ، فلوّح لهما ببندقيته ، يحثّهما على الإسراع ..

وعندما أصبحت (الجيب) على بعد مائة متر من الزورق ، انتفضت فجأة ، وارتجّت فى قوة ، ثم توقّفت ..

وفى خيبة أمل بالغة ، هتف (هشام) :

ــ لقد نفد الوقود .

ألقى (طارق) نظرة متهالكة ، على سيارتى (الجيب) الإسرائيليتين ، اللتين تقتربان فى سرعة ، وهتف بصديقه :

ــ هيا يا (هشام) .. لا تفسد ماصارعنا من أجله .. اهرب واتركنى .

قال (هشام) فى حزم :

ــ لقد صارعنا لنعود معًا .

وقفز خارج السيارة ، وعاون صديقه على الهبوط ، ثم قال :

ــ ضع يدك على كتفى يا (طارق) ، وحاول أن تسير .

صاح بهما البدوى :

ــ أسرعا ..

راح (هشام) يدفع قدميه إلى الأمام دفعًا ، و(طارق) يحاول معاونته ، ولكن ساقة المصابة ، وآلامه المبرحة ، وضعفه الشديد كلها تمنعه من ذلك ..

وبعزيمة خرافية ، واصل (هشام) طريقه نحو الزورق ، والبدوى يراقب السيارتين ، اللتين تقتربان فى سرعة ، ويصرخ :

ــ أسرعا .. أسرعا .

ثم رفع بندقيته ، وصوَّبها إلى سيارتى (الجيب) ، وأطلق رصاصتين .. وأصابت رصاصتاه هدفهما ، فى دقة يُحسد عليها ، وانفجر إطار السيارتين ، فتوقَّفتا ، وارتفع سباب ركابهما الساخط ، فى حين اندفع البدوى يعاون (هشام) على حمل رفيقه ، وهو يقول :

ــ لقد نفدت ذخيرتى .. حمدًا لله أننى نجحت فى إصابة الهدفين .

بلغ ثلاثتهم الزورق أخيرًا ، وهتف (هشام) فى سعادة :

ــ لقد نجحنا ياصديقى .. نجحنا .

عاون صديقه على الاستقرار داخل الزورق ، فى حين راح الإسرائيليون يطلقون رصاصاتهم نحوهم فى غيظ ، وهتف البدوى :

ــ فلنسرع .. لن تطيش كل رصاصاتهم .

قفز (هشام) داخل الزورق ، وبدأ البدوى ينطلق به ، والإسرائيليون يركضون نحوه ، ويطلقون رصاصاتهم ، و(هشام) يصرخ :

ــ نجحنا يا (طارق) .. نجحنا .

ثم دوت تلك الرصاصة اللعينة ..

وجحظت عينا (هشام) ..

وصرخ (طارق) :

ــ (هشام) ..

ترنّح (هشام) ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة شاحبة ، وهو يقول :

ــ كنت على حقّ يا صديقى .. لا تبع فراء الدب قبل صيده .. كيف لم أقرأ هذا المثل من قبـ ...؟

هوى فجأة بين ذراعى صديقه ، الذى صرخ :

ــ لا يا (هشام) .. لا..

فتح (هشام) جفنيه فى صعوبة ، وغمغم :

ــ اطمئن يا صديقى .. لست أشعر بألم .. إننى على العكس أشعر بارتياح .. صدقنى .. إنه ارتياح تام .. لقد سدّدت دينى لك يا رفيق العمر .

صاح (طارق) ، والدموع تملأ وجهه :

ــ أى دين يا صديقى ؟.. أى دين ؟.. انفض عن رأسك تلك الفكرة اللعينة .. اللعنة !.. اللعنة على كل الحروب !..

عادت تلك الابتسامة الباهتة إلى شفتى (هشام) ، وهو يقول :

ــ لا تحزن يا صديق العمر .. إننى لست نادمًا على ما فعلت .. إننى أدفع حياتى عن طيب خاطر من أجلك .. هذا هو الثمن يا صديقى .. ثمن الصداقة .

وتراخى جسده بين ذراعى صديقه ..

* * *

مهلًا .. لا داعى لكل هذا الحزن ..

ولا لكل هذه الدموع ..

إن القصة لم تنته بعد ..

لم تختم فصلها الأخير داخل زورق صغير ، فوق مياه القناة ..

بل فى حجرة صغيرة ، بالمستشفى العام فى (الإسماعيلية) ..

ففى هذه الحجرة فتح (هشام) عينيه ، وتطلّع فى دهشة إلى وجه صديقه (طارق) ، الذى ابتسم فى ارتياح ، وقال :

ــ حمدًا لله على سلامتك .

غمغم (هشام) :

ــ عجبًا !!.. ألم أمت ؟

أمسك (طارق) كف صديقه ، وقال فى سعادة :

ــ لا يا صديقى .. لقد هزمت إرادتك الموت .

سأله (هشام) :

ــ هل نجونا ؟

أومأ (طارق) برأسه إيجابًا ، وقال :

ــ نعم يا بطل .. لقد نجونا .. أنت فعلتها يا صديقى .. أنت أنقذت حياتى .

ابتسم (هشام) ، قائلًا :

ــ كنت أنقذ صداقتنا يا أعزّ الأصدقاء .

ظهر الطبيب فى هذه اللحظة ، وابتسم فى وجه (هشام) ، وهو يقول :

ــ هل استعدت وعيك ؟.. حمدًا لله على سلامتك .. لقد نجوت بأعجوبة ، فقد اخترقت الرصاصة طحالك ، ونزفت الكثير من الدماء ، وكنت تحتاج إلى لتر من الدم على الأقل ، وكنا نعانى من نقص فى كميات الدم ، و...

قاطعه (طارق) :

ـ المهم أنه قد نجا .

تطلّع إليه الطبيب فى دهشة ، وابتسم قائلًا :

ـ عجبًا !.. إننى لم أر صداقة كصداقتكما أبدًا .. أحدكما يتحدّى الموت من أجل صديقه ، والآخر يأتى شاحب الوجه ، بساق مكسورة ، ثم يصرّ على منح صديقه لترًا من دمه ، مخاطرًا بعمره ، مع كل قطرة منه .

ثمّ ربّت على كتفيهما ، واستطرد :

ـ أدام الله صداقتكما .

وتركهما منصرفًا ، فهتف (هشام) بصديقه :

كيف تفعل هذا ؟.. ألا تدرك خطورة التبرّع بدمك ، وأنت تعانى ....

استوقفه (طارق) ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ كنت أريد أن أدعّم صداقتنا يا (هشام) .. الآن يجرى فى عروقنا دم واحد .

هتف (هشام) معترضًا :

ـ ولكن لترًا كاملًا من دمك يعنى ..

قاطعه (طارق) مرة أخرى ، وهو يشبّك أصابعه بأصابع صديق عمره ، ويبتسم تلك الابتسامة ، التى تحمل كل معانى الودّ والصداقة والمحبّة ، وهو يقول فى خفوت :

ـ أنت قلتها يا صديقى .. إنه الثمن .

واتسعت ابتسامته ، وتشابكت أصابعهما أكثر ، وهو يستطرد :

ـ ثمن الصداقة .

[تمت بحمد الله]

* * *

روايات مصرية للجيب

كوكتيل ٢٠٠٠

باقة من القصص والروايات المصرية
قمة فى التشويق والإثارة

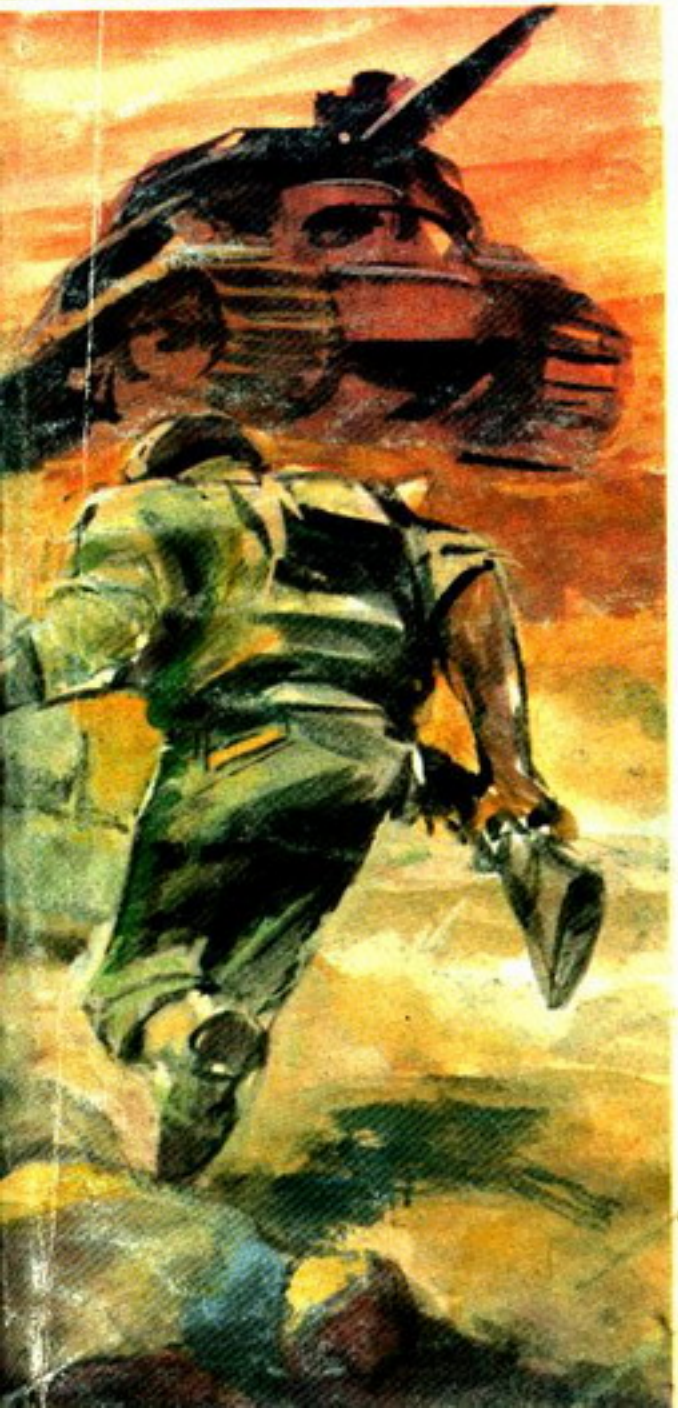

فى هذا الكتاب

صفحة

- رفقًا بهم (قصة قصيرة) ٥

العقرب (سلسلة جديدة)

العصابة (الجزء الأول) ١١

- الخوف (قصة قصيرة) ٧٢

الجنّى (قصة كاملة) ٧٧

- مجهولو الهوية (دراسة) ١٣١

قصة العدد

ثمن الصداقة ١٤١

- عزيزى القارئ ١٩٣

الثمن فى مصر ١٥٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم